من التراث الأدبي

للمغرب العربي

دكتور

عبده عبد العزيز قلقيلة

الأستاذ المشارك بكلية الآداب

جامعة الرياض

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

من التراث الأدبي
للمغرب العربي

دكتور
عبده عبد العزيز قلقيلة
الأستاذ المشارك بكلية الآداب
جامعة الرياض

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت . القاهرة
١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل رب زدني علما »

صدق الله العظيم

الفهرست

الطبعة الاولى : ١٩٧٩
مـطابع : دار الهنا ـ القاهرة
الناشـر : عالم الكتب
تم الطبع فى ١٩٧٩/٩/١٠

الإهــداء

هذه الدراسة مهداة الى معهد الآداب والثقافة العربية بجامعة قسنطينة : مديرا وأساتذة وطلابا وأتعشم أن تكون نواة لدراسات أخرى تأتى على أثرها وفى أعقابها .

عبده عبد العزيز قلقيلة

القاهرة
غرة رمضان المعظم سنة ١٣٩٨ هـ
٥ من أغسطس سنة ١٩٧٨ م

١ ــ عنوان المرقصات والمطربات :

هذا الكتاب « عنوان المرقصات والمطربات » من تأليف رئيس الأدباء وعميد الفضلاء نور الدين على بن الوزير أبى عمران موسى بن محمد ابن عبد الله بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن عمار بن ياسر .

المتوفى فى شعبان سنة ٦٧٣ هـ بدمشق والمعروف بابن سعيد المغربى قال صاحب « فوات الوفيات » عنه :

« ورد من المغرب وجال فى الديار المصرية والعراق والشام وجمع وصنف » وهو صاحب كتب كثيرة منها :

[المغرب فى حلى المغرب] و [المشرق فى حلى المشرق] و[الجغرافية] و [ملوك الشعر] .

و [عنوان المرقصات والمطربات]

وهو الكتاب الذى نتشرف اليوم بعرضه وتحليله فى هذه السلسلة التى نستهلها به .

وابن سعيد فيه على مذهب الجاحظ وابن قتيبة والقاضى الجرجانى وابن رشيق القيروانى وغيرهم ، فى انصاف المحدثين ، وانزالهم منازلهم التى يستحقونها فى خط سير الأدب ، بصرف النظر عن أزمانهم ، أى أنه مع الجودة تقدم الزمن بها أو تأخر ، وضد الرداءة تقدم الزمن بها كذلك أو تأخر .

يصافحنا هذا الرأى له فى خطبة كتابه بقوله :

« فان الله جل وعلا جعل قيمة كل امرىء ما يحسن ويقول ، وشرف البلاغة بأن تأخذ الأفهام منها على قدر للقرائح والعقول،ولم يمكن من أعنتها من هو عن مجال رجالها قاصر ، وحباها فى كل عصر بأكــرم ولى وأعز ناصر ، ولم يقصر الفضل على من تقدم » ص ٦ .

ولا يعجبه ما ذهب اليه عنترة من استغراق القدماء لمعانى الشعر

بقوله فى صدر معلقته : هل غادر الشعراء من متردم ؟

فيدفعه بقول القائل : —

فلو كان يفنى الشعر أفنته ما قـرت
حياضـك منـه فى العصـور الذواهب
ولـكنه صـوب العقـول اذا انجلت
سـحائب منـه أعقبت بسـحائب

ويقول ابن شرف :

عثنى الناس بامتـداح القـديم
وبذم الحـديث غـير الذميم
ليس لا لأنهم حسدوا الحى
ى فرقـوا على العظام الرميم

ويستظهر على ذلك بقول ابن رشيق — وان لم يصرح باسمه — « ان المتقدمين بنوا فأوثقوا ، وان المتأخرين زينوا ونمقوا » [ص ٦ وانظر العمدة ج ١ ص ٩٠ والنقد الأدبى فى المغرب العربى ج ١ ص ١٦٤] كما يستظهر عليه بما جاء فى الرسائل التى وقعت له من مثل قولهم : — « ان لكل زمان ما يليق به من البيان » و « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ٠

ونراه مؤمنا بأن البلاغة لا تزال تطلع فى كل عصر بالمشارق والمغارب ما يزين سماءها من شمس وبدر وكواكب ٠

والمنصف عنده هو من أطال عنان الاختيار دون اقتصار ، ولم يخص بالفضيلة عصرا دون عصر ، ولا مصرا دون مصر ٠

ولا يقتصر على هـذا التقرير النظرى بل يتبعـه بتقرير آخر عملى استخلصه من تجواله الدائب ، واقرأ قوله :

« وانى لما تغلغلت فى الرحلة ما بين مشرق ومغرب ، وملأت سمعى من

كل معجب بنفسه ومعجب ، ولقيت من الخائضين فى النظم والنثر ما اشار اليه القائل بقوله :

النـــــاس كالأرض ومنهـــــا هـــم
مـن خشـــن فيهـا ومـن ليّن
مـرو تشـكى الرجـل منـه الأذى
ولقـــد يجمـــل فى الأعـــين

ولقد أثمر هذا التجوال الطيب كتابيه :

[المشرق فى حلى أهل المشرق] و [المغرب فى حلى أهل المغرب] ثم شرع فى استخلاص كتاب منهما تحت اسم [جامع المرقصات والمطربات] •

ويظهر أنه أعلن ذلك . فاستعجله الناس عن اتمامه . ولما الحوا عليه فى ذلك اخرج لهم ما كان قد لمله منهما وسماه [عنوان المرقصات والمطربات] وجعله بمثابة مقدمة للجامع ومدخل اليه •

وقد ضمنه من النظم بدائع ابيات لا يشق على القلب والطرف ذكرها ولحظها مما يحاكى شعشعة الشمس على صفحات الأنهار ورقرقة الظل فى لحظات الأزهار ، ليرف على مائيته ريحان القلوب ويعطيه السمع لحظ المحب الى المحبوب •

مـن كـل معنى ولفـــظ كخمـــرة فى زجاجتـــه
يشـــرى النســـيم اليــه يبغـى لـــديه علاجـــه

ويحسن التنبيه الى أنه رتبه على الأعصار ، وان ما اختاره وأثبته من الشعر فيه لا يتجاوز ألف بيت •

***

والمرقصات والمطربات هى القصائد أو المقطعات التى تأتى فى الدرجتين الأولى والثانية من درجات الشعر الخمس والثلاثة الأخرى هى •

المقبول والمسموع والمتروك - على التوالى ٠

فليست المرقصات هى الراقصات ، وليست المطربات هى المغنيات كما فهم ذلك من قدم للكتــاب بقوله الذى يدل على عدم فهمه « والكتاب مع صغر حجمه وقلة عدد صفحاته ، يعد من الكتب الفنية لما جمعه بين صفحاته من أخبار الراقصات والمطربات فى العصور الغابرة » ٠

***

والمرقص عند ابن سعيد : ما كان مخترعا أو مولدا يكاد يلحق بطبقة **الاختراع كقول امرىء القيس** :

سمـــوت اليهـــا بعـــدما نام أهلهـــا
سمـــو حبـــاب المــــاء حالا على حال

وكقول وضاح اليمن :

قالت : لقــد أعييتنا حجــة | فأت اذا ما هجــع الســامر
وأسقط علينا كسقوط الندى | ليــلة لا نـــاه ولا آمــر

وكقول ابن حمديس الصقلى :

باكــر الى اللــذات واركب لهـــا
ســـوابق اللهـــو ذوات المـــراح
من قبـــل أن ترشف شـــمس الضحى
ريق الغـــوادى من ثغـــور الاقاح

والمطرب : ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع الا أن فيه مسحة من الابتداع كقول زهير فى المتقدمين :

تراه اذا ما جئتـــه متهـــللا | كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وقول حبيب فى المتأخرين :

ولو لم يـكن فى كفـه غير نفسـه
لجـاد بهـا فليتـق الله سـائله

والمقبول : ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل وغيرهما من الألوان البلاغية الأخرى ومن المقبول قول طرفة فى المتقدمين :

ستـبدى لك الأيام ما كنت جاهـلا
ويأتيـك بالأخبـار من لـم تزود

وقول ابن شرف فى المتأخرين :

لا تسـأل النـاس والأيام عن خبرى
همـا يبثانك الأخبـار تطفيـلا

والمسموع : ما عليه أكثر الشعراء مما به القافية والوزن دون أن يمجه الطبع ويستثقله السمع كقول امرىء القيس :

وقـوفا بهـا صـحبى علىّ مطيهـم
يقولون : لا تهلك أسىً وتجمـل

والمتروك : ما كان كلا على السمع والطبع كقول المتنبى :

فقلقلت بالهم الذى قلقـل الحشـا
قلاقـل هـم كلهـن قلاقـل

***

ووفاء من المؤلف لعنوان كتابه ، قصره على المرقصات والمطربات دون بقية الطبقات ، لكنه احتـاط لنفسه بقوله : « وقد يلى من طبقتى المسموع والمقبول ما يكون توطئة للمرقص والمطرب ، فأجعله من جملة الألف بشفاعة ما يتعلق به » ص ٩ .

***

واذا كان ابن سعيد قد عول أكثر ما عول فى التمثيل للمرقص والمطرب بما يراه كذلك من الشعر . لكونه أعلق بالأفكار واجول فى الأقطار ، وهو معين على نفسه فى تذكاره ودرسه ، فانه لم يخل كتابه من النثر بالكلية . وانما أورد منه ما يكون كالعلم فى الحلة الموشية .

ولما كان النثر فى الأدب العربى يطلق على ما هو مقيد بالسجع ، وعلى غير ما هو مقيد به . فانه لم يورد فى كتابه — على حد قوله — الا ما كان مقيدا بالسجع المسهل للحفظ مما هو داخل فى طبقتى المرقص والمطرب ، جريا على ما اختطه لنفســــه فى الشعر . وقد رتب ما ذكره من النثر على الاعصار .

مثلما فعل فى الشعر ، فهو يورد نصوصا لعبد الحميد بن يحيى الكاتب وابراهيم بن العباس الصولى والخليفة العباسى عبد الله بن المعتز وأبى الفضل ابن العميد وابنه أبى الفتح وأبى اسحق الصابى والصاحب بن عباد وأبى نصر العتبى وبديع الزمان الهمذانى والأمير أبى الفضل الميكالى وأبى محمد القاسم بن على الحريرى والقاضى الفاضل البيسانى وضياء الدين أبى الفتح ابن الأثير الجزرى وابن كيزان المصرى وابن الصيرفى المصرى وذى الوزارتين أبى عبد الله بن أبى الخصال امام كتاب الأندلس طرفى المائتين الخامســـة والسادسة وعيسى بن خير العكيلى والفتح بن عبد الله صاحب قلائد العقيان وهو من أئمة كتاب الأندلس فى المائة السادسة وأبى جعفر بن عطية الطرشوشى امام الكتاب فى صدر دولة عبد المؤمن الموحدى وعنوان طبقته وأبى عبد الله ابن عياش كاتب الناصر وغيره من بنى عبد المؤمن والنجـــم القوصى وزير صاحب حماه وابن أبى منصور الدمياطى وزير الملك الأشرف وهو من بلغاء المائة السابعة بالديار المصرية وأبى العباس الغشائى كاتب صاحب افريقية وهو علم فى الكتاب تعجز بلاغته وأبى الوليد بن الحنان وعلى بن سعيـد صاحب الكتاب الذى نعرضه .

***

ولنلاحظ أنه ادخل المصريين والأندلسيين فى مفهوم المغرب ولا عجب؛ فهذا هو رأيه الذى رأيناه له فى كتابه (المغرب فى حلى المغرب) ؛ ففى دار الكتب المصرية . ١٠٥٠ ورقة من هذا الكتاب منها ٥٣٦ خاصة بمصر ، وهذا يعنى أن المغرب من وجهة نظره يمتد من الأندلس حتى حدود مصر الشرقية وهو نفس ما ذهب اليه فى كتابه [الجغرافية] ص١٨طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ تحقيق اسماعيل العربى ، وما نجـــده له هنا ؛ فهو فى صدر ص ٧٥ من [عنوان المرقصات والمطربات] طبعة دار أحمدوحيو ببيروت سنة ١٩٧٣ يعطى هذا العنوان :

شعراء المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط :

ويستهل كلامه تحت هذا العنوان بقوله :

«الجاهلية وما بعدها الى المائة الرابعة عاطلة مما هو شرط هذا الكتاب» . قد تضمن هذا القول ـ على وجازته ـ حقيقة أدبية بالغة الأهمية هى أنه **لا يوجد أدب مرقص ولا أدب مطرب بالمغرب العربى الكبير فى ثلاثة القرون** الهجرية الأولى .

***

ولعلنا ـ نحن المشارقة ـ فى غير حاجة ماسة الى ما مضى من الكتاب الى هذا الحد ؛ فهذه بضاعتنا ردت الينا .

أما من هنا، أى من ص ٧٥ ، فاننا نجد المؤلف يستفتح شعراء المائة الرابعة بابن عبد ربه صاحب العقد وامام أهل أدبها بالأندلس .

ويختار له من المرقص قوله الذى حكم المتنبى بسماعه انه شاعر الأندلس :

يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقا
ورشا بتعذيب القلوب خليقا!
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
دراً يعود من الحياء عقيقا!
واذا نظرت الى محاسن وجهه
أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة
ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وبعد ابن عبد ربه : ابن هذيل الاعمى ويوسف بن هارون الرمادى والشريف المروانى الطليق . ومما اختاره له مرقصا به قوله :

وعلى الأصـــائل رقة من بعده   فكأنهـا تلقى الـذى ألقـــاه
وغدا النسيم مبلغـا ما بيننـا   فلـذاك رق هوى وطاب شذاه
الروض مبسمه ونكهتـه الصبا   والورد ـ أخضله الندى ـ خداه
فلـذاك أولـع بالرياض لأنهـا   أبـداً تذكـرنى بمـن أهـواه

ثم جعفر بن عثمان الحاجب وابن فروج الحيانى وتميم بن المعز والمقداد المصرى وأبو الحسن العقيلى وابن وكيع التنيسى هؤلاء كانوا شعراء المائة الرابعة الذين اختار ابن سعيد من شعرهم شعرا يتردد بين المرقص والمطرب٠

***

أما :

شعراء المائة الخامسة ص ٧٨ :

... فهم ـ حسب ترتيبه لهم ـ أبو عمرو بن الدراج القسطلانى وادريس ابن اليمان وأبو عامر بن شهيد وأبو جعفر اللمـــائى وأبو حفص بن بروا الاصغر والوزير الامام أبو محمد بن حزم والمعتمد بن عباد ملك أشبيلية وابنه الراضى والمأمون بن المعتمد وأبو بكر بن عمار وزير ابن عباد وأبو الوليـد ابن زيدون وزير ابن عباد وحبيب الأندلسى وزير ابن عباد وأبو حفص كاتب المعتمد بن عباد والوزير أبو عامر عبدوس وابن وهبون المرسى والبجلى وأبو الفضل بن شرف وعبد الله بن القابلة السبتى وابن رشيق وعبد الله بن محمد العطار وعبد الرحمن بن حبيب وأبو عبد الله بن شرف وعلى بن يوسف التونسى وعتيق الوراق وعمران بن القاضى المسيلى وعبد الوهاب المثقالى وابن الغطاس وابن أبى مغذوج وثقة الدولة جعفر بن تأييد الدولة ملك صقلية ٠

ولنقف من شعر هذا الملك عند قوله من المرقص :

رأتنى وقـد شـبهت بالورد خـدها
فتاهت وقالت : قاس خـدى بالورد
كما قال : ان الأقحـــوان كمبسمى
وان قضيب البـان يشـبهه قـدى

وحــق صــفا مــاء النعيــم بوجنتى
وحسن الجبين الصلت والفاحم الجعدى
لئن عــاد للتشبيــه يوما حــرمته
لذيذ الســكرى لا بل أذوقــه فقــدى
اذا كان هــذا فى البســاتين عنــده
فقولوا له : لم جاء يطلبه عنــدى ؟ !

وبعد هذا الملك يأتى شعر مرقص للقائد الحسين بن مشكور ومحمــد ابن الحسن الكاتب وعلى بن الطبرى وابن عتيق الصفار وعبد العزيز بن الحاكم وأبى الحسن بن ابراهيم الودانى والقــاضى الجليس أمين الدين المصرى وصنهاج وهاشم بن الياس المصرى وابن ملنسه وأبى الطــاهر بن دواس الكاتمى ويعقوب بن كاس اليهود وزير العزيز والموفق أبى الحجاج بن محمد صاحب ديوان المكاتبات وأبى على الأنصارى والقاضى أبى الفتوح بن قادوس وأحمد بن مفرج وابن عباد الاسكندرانى وابراهيم بن شعيب المصرى وعبدالله ابن الطباخ وظافر الحداد الاسكندرانى وعلى بن حبيب التميمى والجليس ابن الحباب ·

***

ومن شعراء المائة السادسة :

أبو اسحق بن خفاجة وابن اللبانه ، ومن مرقصه قوله :

بروحى وأهلى جــيرة ما اســتعنتهم
على الدهـــر الا واثنيت معــــانا
أراشـــوا جناحى ثم بلوه بالنــدى
فلم أســتطع من أرضــهم طــيرانا

وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو جعفر الجزار البطرنى وابن وضاح المرسى وابن الزقاق البلنسى وأبو الصلت صاحب الحديقة والحجازى صاحب المسهب ومحمد بن سعيد عم جد المصنف وابن أخيه أبو جعفر بن عبد الملك ابن سعيد الذى كتب الى حفصة الشاعرة اثر ليلة وصال باتا بها فى موضع يعرف بجود مؤمل وهو متنزه :

رعى الله ليــلا لــم يــرح بمذمــم
عشــيه وأرانــا بجــود مؤمــل

وغــرد قمــرى على الــدوح وانثنى
قضيب من الريحان من فوق جدول

أترى الروض مســرورا بما بدالــه
عنــاق وضــم وارتشــاف مقبــل

فجاوبته تقول :

لعمــرك ما ســرت رياض بوصــلنا
ولكنها أبدت لنا الغــل والحســد

ولا صــفق النهر ارتبــاحا لقــربنا
ولا صدح القمــرى الا لمــا وجــد

فلا تحســن الظن الذى أنت أهــله
فما هــو فى كل المواطــن بالرشــد

فمــا خلت هذا الأفق أبدى نجــومه
لأمر ســوى كى ما تكون لنا رصــد

وانما اوردت هذا المثال – على طوله – لأنبه الى ان ابن سعيد يترخص فى نثره وشعره بل فى شعر اهله وكل من يلوذ بهم ·

ففى رأيى انه لا يأتى فى ذلك كله على شرط كتابه وانظر صفحات ٢٠ ، ٨٨ ، ٩٤ وبعد حفصة الشاعرة ، ابن سفرة المرينى وأبو عبد الله الرصافى البلنسى وابن مجير وابن بقى وابن حيون الاشبيلى وابن قلاقس الاسكندرانى وابن حمديس الصقلى ·

***

ونصل من كتابه الى مسك ختامه وهم : - .

شعراء المائة السابعة :

الى عهده :

الأسعد بن مماتى وابن سناء الملك والنجيب بن الدماغ وجعفر بن شمس الخلافة والكمال بن النبيه والبرهان بن الفقيه نصر والأمير سيف الدين سابق والصاحب جمال الدين بن مطروح وشرف الدين الديباجى وابن شاور والزكى ابن أبى الاصبع وأبو الحسن الجزار والتاج بن غنوم الاسكندرانى وسلطان افريقية أبو زكريا بن عبد الواحد وابو على بن العفون وأبو جعفر بن طلحة وزير بن هود صاحب الأندلس وكاتبه ومرج الكحل ومطرف الغرناطى وابراهيم بن محبوب كاتب ابن الرستمى صاحب صقلية وأبو القاسم بن طلحة الصقلى ومرقصه الذى أورده ابن سعيد له هو :

أيتها النفس اليه اذهبى
فحبه المشهور من مذهبى

مفضض الثغر له نقطة
مسكية فى خده المذهب

آيسنى التوبة من حبه
طلوعه شمسا من المغرب

ثم ابن جبير الصقلى وأبو جعفر بن عياش وعفيف الدين التلمسانى وأبو الحسين الرقشى وابن الصابونى الاشبيلى وأبو الوليد بن الحنان وأبو عبيد بن أبى الحسين بن سعيد وزير صاحب افريقية وموسى بن سعيد والد المؤلف .

والمرقص الذى أورده ابنه له يؤكد ما ذهبنا اليه من أنه ضعيف مع نفسه ومع أهله ؛ فهو يحابيهم ويخل بشرط كتابه من أجلهم .

وهذا هو مرقص والد المؤلف :

الا حبذا روض بكرنا له ضحى
وفى وجنات الورد للطل أدمع

وقد جعلت بين الغصـــون لسـيمه
تمـــزق ثوب الظــل منه وترقـع
ونحــن اذا ما صــلت القضب ركعـا
نظــل لها من هزة الســكر نركــع

وعلى بن سعيد المؤلف ، قال من أبيات فى جورة الصالحية بمصر وذكر احداق النيل بها :

وعانقهـــا من فرط شـــوق لحســـنها
فمــد يمنيـــا نحـــوها وشـــمالا

والمرقصان السابقان أولى بهما أن يكونا من المسموع ، فان جاملنا المؤلف جعلناهما من المقبول ولو أنهما الى المسموع أقرب وفيه أدخل ٠

***

بهذا ينتهى الكتاب . وقد جرى فيه كله على ما وصفنا فى قسم شعراء المغرب ٠

فهو يبـــدأ بالعصر الجاهلى فيذكر فحوله والمرقص او المطـرب من اشعارهم :

امرؤ القيس والنابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وأعشى بكر الذى وقف عنده وقفة نقدية لاذعة فقال :

« اكثر ما وقفت عليـــه من أوصافه الخمرية التى اشتهر بها أعرابية جافية يخرجها نمطها عن المرقص وان كانت حسنة التشبيه » ص ٢٤ ٠

وبعد أعشى بكر أعشى باهلة وقيس بن الحطيم ٠

ويورد من المخضرمين : حسان بن ثابت والنابغة الجعدى والحطيئـة وعمرو بن شاش والشماخ وعبيدة بن الطبيب ومتمم بن نويرة وكعب بن زهير وعمرو بن معدى كرب والعباس بن مرداس وأبا الطمحان القينى والخنساء وجنوب بنت عمرو ذى الكلب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وأوس بن معزى وأبا ذؤيب الهذلى والوليد بن عقبة ٠

***

وينتقل بعد ذلك الى **شعراء الاسلام** حتى نهاية الدولة الأموية ص٣٠ ٠

ثم الى المخضرمين من شعراء الدولتين الأموية والعباسية فشعراء صدر الدولة العباسية الكائنين فى آخر المائة الثانية ٠

فشعراء المائة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ٠

واذا كان لنا أن نختار نموذجين يوضحان هذا الاجمال ويبطئان من هذا الاستعجال ، فاننا نقف عند الأحوص ٠

ومن المطرب له قوله :

كم دنىء لها قد صرت اتبعه
ولو صحا القلب عنها صار لى تبعا

لا أستطيع نزوعا عن محبتها
أو يصنع الشوق بى فوق الذى صنعا

أدعو الى هجرها قلبى فيسعدنى
حتى اذا قلت : هذا صادق نزعا

وزاده رغبة فى الحب أن منعت
أشهى الى المرء من دنياه ما منعا

ونقف كذلك عند محب الحلبى ٠

ومن شعره المرقص وهو مرقص حقا :

لا تقولى : لا ؛ فمكتوب على
فمك الفتان حسنا نعم

حروف أبدعت من قدرة
ما جرى قط عليها قلم

نونها الحاجب والعين بها
طرفك الساحر والميم فم

واذا كنت قد قررت أن الكتاب قد انتهى بوصوله بشعراء المغرب الى عهده ، فهذا التقرير منى حكم نقدى ٠

أما عمليا ، فاننا نجد بعد ص ٩٤ صفحة كاملة معنونة هكذا :

القسم الثاني من المرقصات والمطربات

وهو شيء كثير كثير ينتهي بصفحة ٢٨٧ ·

لكنه من وجهة نظري لا يمت الى | عنوان المرقصات والمطربات | بأيه صلة ·

من موضوعات هذا القسم :
أخبار ابى نواس وجنان خاصة — نسب ابن عيينة وأخباره خبر بن سريج مع سكينة بنت الحسين — أخبار عبد الله بن العجلان مع الجارية هند، **ونحو ذلك مما يدل على أن من ألحقـــه بالمرقصات والمطربات قد أثقل على** نفسه وعلينا وعلى الكتاب الأصلي ·
ولهذا دلالتان :

الأولى : أن هذا المضيف لم يفهم موضوع الكتاب وأكاد أقول:لم يقرأه ·
والثانية : أنه أراد أن يكبر حجم الكتاب من باب النفخة الكـذابة حتى **يبيعه بثمن أعلى** ·

لكنه — **بهذا الذى ارتكبه فى حق الحقيقة — ضال مضل وأنا لا أدمغه** بهذا الحكم القاسى اعتباطا ·

انظر : ها هو ذا يقول فى نهاية المطبوع :
« **تم طبع هذا الكتاب : المرقصات والمطربات فى ٣٠ آذار ١٩٧٣ المأخوذ** عن الطبعة الأولى المطبوعة فى القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ ، وهذه الطبعة — أى طبعته — **تمتاز عن الأولى بتبويبها وتنسيقهـا والاضافات التى زيدت عليها بما يناسب موضوع الكتاب** » ·

واذن فهو قد أضــاف الى الكتاب اضافات تنــاسب — فى رأيه — موضوعه ·

وهذا من اعجب العجب ·
فهى **أولا** : آفات لا اضافات ·
وهى **ثانيا** : لا تناسب موضوع الكتاب ·
لكنه الجشع التجارى والطمع فى المال ·
ولكنها بيروت وطبعها للتراث طبعا مسلوقا غير ناضج ولو أنه طازج ·

٢ ـ الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان

ليس لهذا الكتاب موضوع محدد ، وليس له كذلك مؤلف تنسبه له وترده اليه ولو ان محققه عبد الحميد حاجيات الأستاذ فى كليـــة الآداب بجـامعة الجزائر قد أظهره بما يدل على أن مؤلفه هو الشيخ الصــالح ابو مدين شعيب ٠

وسر اسناد هذا الكتاب الى أبى مدين ان جامعه قد صدره بزجـل وتوشيح ثم بثلاثة ازجال وتوشيح للسيد أبى مدين ٠

وابو مدين هــذا هو الولى الشهير ابو مدين شعيب بن الحسين الانصارى ٠ أصله من ناحية أشبيلية بالأندلس ، ولما شب عن الطوق رحل الى المغرب ودخل فى طريق الصوفية ، وقد اشتهر أمــره ببجـــاية وكثر تلاميذه بها واقبل عليه الناس فيها التماسا لعلمـــه وبركاته واقتـــداء بطريقــه ٠

وفى سنة ٥٩٤ هـ استدعاه يعقوب المنصور الموحدى الى عاصمته مراكش فرحل فى اتجاهها ولكنه مرض فى طريقه وتوفى قرب تلمسان فدفن بضاحيتها [العبـاد] ٠

هذا عن أبى مدين الذى ظهر الكتاب باسمه ٠

اما جامعه الذى جمعه وعنونه فهو الأديب التلمسانى محمد بن محمد امرابط ٠

وقد ذكر انه جمعه بطلب من المستشرق الفرنسى بروصلار الذى كان يشغل منصبا ساميا بتلمسان على عهد الاحتلال الفرنسى للجزائر ٠

واذا كنا لا نعرف شيئا عن محمد بن محمد امرابط هذا ، فاننا نعرف عن بروصلار أنه كان مهتما غاية الاهتمام بدراسة تاريخ تلمسان وآثارها الاسلامية ٠

ومن حسن الحظ أنه كان مهتما كذلك بالادب الشعبى وبالموسـيقى المغربية ذات الطابع الاندلسى ٠

ومن هنا جاء طلبه أو صدر أمره بأن يجمع له محمد بن محمد امرابط بعض المختارات المشهورة من ذلك الشعر الذى جـرت عادة الناس فى تلمسان بتلحينه وانشاده فى حفلاتهم الدينية والاجتماعية · وقد قام محمد بالمهمة التى وكل اليه القيام بها خير قيام ·

فجمع هذا الديوان ونسخه بخطه الواضح الجميـل فى رمضان سنة ١١٧١ هـ الموافق شهر يولية سنة ١٨٥٥ م وسماه :

[الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان]
وهو موجود فى المكتبة الوطنية بباريس ضمن المجمـوع رقم ٥٢٥٤ [القسم العربى] ·

والكتاب فى جملته من الأدب الشعبى الذى كان متداولا على الألسن أواسط القرن الماضى فى جمهورية الجـــزائر بعامة وفى ولاية تلمســـان بخاصة ، ولى أن محققه الفاضل قد وسع دائرته بقوله فى مقدمته : —

« ولا يخفى على القارىء الكريم أن الانتـــاج الأدبى المودع فى هــذا المجموع يرجع الى تراث ثقافى مشترك بين سائر الدول العربية ، فكثير من الموشحات والأزجال الواردة فيه معروفة فى المغرب والمشرق العربيين ، مع اختلاف خفيف فى الروايات ·

ولهذا رأينا ضرورة نشره ليطلع الجمهور المغربى بصفة خاصة والعربى بصفة عامة على نفائس من أدبنا الشعبى ، ولتصبح هذه النصوص المنتقاة فى متناول هواة الموسيقى الأندلسية المتعطشين الى هذا النوع من ثقافتنا العربية » ص ٨ — ٩ ·

:.

ومهما يكن من أمر هذا المجموع فانه ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية :—

القسم الأول : المدائح النبوية من ص ٢٣ الى ص ١٠٤ ·

والقسم الثانى : الموشحات والأزجال الأندلسية من ص ١٠٥ الى ص ٢٨٢ ·

والقسم الثالث : الحوازى · والحوازى جمع حـوزى ، والحـــوزى فى اصطلاح المغنين والموسيقيين والأدباء المغاربة هو الشعر

المنظوم باللغة الدارجة حسب أوزان خاصة تخالف أوزان الموشحات والأزجـال ، وبعبارة أخـــرى هو الشــــعر الملحون ·

وقد شغل هذا القسم الصـفحات من ص ٢٨٣ الى ص ٣٩٧ ، وبعد ذلك صفحتان مصورتان ثم المراجع والفهارس الى ص ٤٢٧ وهى آخـــر صفحة فى الكتاب ·

***

والآن · مع كل قسم من هذه الأقسام فى دراسة موجزة تعريفاً بها وتمثيلا وتعليقاً عليها ·

***

القسم الاول

وموضوعه :

المديح النبوى والتهويم الصوفى

وهو يبدأ بجملة من كلام شيخ العارفين وقدوة الصالحين سـيدى ابى مدين الغوث . سبق أن قلنا : انها موشحتان وأربعة أزجال ، ولو أن ثمة شك فى نسبة بعض هذه الأزجال اليه ، فهى توجد فى ديوانه كما توجد فى ديوان الشاعر الصوفى أبى الحسن على النميرى الششترى المتوفى سنة ٦٦٨ هـ [انظر ترجمته فى عنوان الدراية ص ٢١٠]

ثم ثلاث قصائد وزجل واحد للسيد أحمد الجلبى

وقصيدة وزجلان للأديب الداودى الفروى ·

وأخيرا اربعة أزجال طوال من كلام سيدى أبى جمعه وهو من أولياء تلمسان المشهورين بها ، وقبره فيها عند باب كشبوطة المسمى الآن باسمه ·

***

والموشحان المنسوبان الى أبى مدين يمتازان بأن لغتهما صحيحة ان لم تكن فصيحة ·

أما الزجل المسلم له به . والأزجال الثلاثة الموجودة على الأعراف بينه وبين الششترى فتتردد لغتها بين الفصحى والعامية ·

من موشحته الأولى هذا البيت مع المطلع : —

أنت بما قد سَقَيْتَ شارِبْ	من راحـق كـان أو كـدر
سهمُكَ فى الغير فيك صائبْ	مـالك عن نصـله مفـر
ثمـارَ ما قـد غرستَ تَجنى	وهـذه عـادة الزمـان
خـذ الحـديث الصحيح منى	كمـا يـدين الفتـى يـدان
من بـات منـه الورى فى أمـن	بـات من الدهـر فى أمـان
الدهـر بحـر له عجـائب	وهـو خطيب لمـن نظـر
فاطـرح الغىَّ عنـد جانب	وخـذ على نفسـك الحـذر

***

وواضح أن موضوع هذا التوشيح هو الحكمة ، وهـو نظـم للآية القرآنية الكريمة « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ·

مع الأخذ فى الاعتبار أن رد الفعل الذى رصده صاحب التوشيح معجل لصاحبه فى الدنيا ، أما الآية الكريمة فعامة تشمل الدنيا والآخرة ·

وهذا التوشيح ثلاثة أبيات ، والغالب فى التوشيح أن يكون خمسة وله مطلع أى انه غير أقرع

وهو من مخلع البسيط ووزنه
مستفعلن فاعلن فعولن مرتين

***

والتوشيح الثانى لأبى مدين بعنوان :

[ركبت بحرا من الدموع]

وهذا هو مطلعه وبيته الأول :

ركبت بحرا من الدموع	سفنته جسمى النحيل
فمزقت ريحه قلوعى	قد عصفت ساعة الرحيل
يا جيرة خلفت عيونى	تجرى على الغد كالعيون
خيبتم فى الهوى ظنونى	ما هكذا كانت الظنون
منوا ولا تطلبوا منونى	فان هجرانكم منون
وجملوا الدار بالرجوع	وبردوا لوعة العليل
وسامحوا الطرف بالهجوع	وقصروا ليلى الطويل

ومعنى البيت واضح ولو انه من الأدب الرمزى ، فهو يرمز بتمزيق الريح لقلوعه الى عصف أهوائه به فى أول عهده بالتصوف ، لكأنه ينبه المريدين الى مشقة المرحلة الأولى من مراحل الطريق وهى التوبة وجهاد النفس والتغلب على ما ينتابها من خواطر ونزعات دنيوية ·

***

ونلاحظ أن قافيتى الشطرين الأول والثانى فى الغصن من المشترك

فى [عيونى] قافية الشطر الأول : جمع عين وهى الباصرة و[كالعيون]
الشطر الثانى : جمع عين وهى عين المـاء يريد أن يقول : ان دموع
تحاكى فى غزارتها الينابيع ·

وهذا الموشح أربعة أبيات وله مطلع وخارجة ، وهو ـ كسابقه ـ من
البسيط ·

***

ومن زجله المسلم له به وهو بعنوان :

[دارت علينا كيوس]

دارتْ علينـا كئـوس	مـن خمـره العـالى
لا تطيـب النفـوسْ	الا بأمثـالى
دارت علينـا كيـوس	فى حضـرة المحبـوب
اهـلَ المعـانى جلُـوس	ومَـنْ دخـل يَشـربْ
لا تطيـب النفـوس	الا لمـن يقتـربْ
ســرّ المعـانى تَغـوص	هَـذاكْ هـوَ حـالِى
لا تطيـب النفـوس	الا بأمثـالِى

ص ٢٥ ـ ٢٦

فى الأصل [البالى] والمعنى به لا يستقيم ، فالبالى هو خمر الدنيا ،
خمر المراد هنا وفى كل ما سيأتى بهذا القسم ، فالمقصود به انما هو
ى فى العبادة من ذكر وزهد وصوم وتهجد ·

والمحبوب هو الرسول صلى الله عليه وسلم ·

واصراره على أن النفوس لا تطيب الا به وبأمثاله ، من باب احساس
بنفسه واغراء الناس بطريقه ، فهو حض لهم على اتباعه وسلوك سبيله،

ولا يصح أن نحمله محمل العجب بنفسه ، والادلال على الله وعلى النـاس بصلاحه ·

وفى الزجل نوع من التجريد نتمثله فى قوله :

[أهل المعانى] وفى [بحر المعانى] ·

كما أن فيه اغراء بالوسيلة وهى الدخول فى الطريق ، وتبشيرا بالغاية وهى القرب من الله الى درجة الالتصاق به والاعتناق له والفناء فيه ، وعلى حد قوله: « كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه فليست بحقيقة » [عنوان الدراية ص ٦٤] ·

وهذا المثال ـ وهو من الزجل المتردد بينه وبين الششترى لأنه موجود فى ديوانيهما ـ يؤكد حرصه على تحقيق هذه الغاية بأية وسيلة ، بل يثبت أنها قد تحققت له ·

قال :

أنـا يهـواه وهـو يعشقنى   سـلمرا حـالى
سـقانى لمـا بدأ أنتشـقنى   نشـرُه الغـالى
هـو لى رُوحٌ أقام البـدنا   هـو فى سـرِّى
لا تعـوموا تغـرقـوا فى بحرنا   ذاكَ هـو بحـرِى

ص ٣٣ ـ ٣٤

وترتفع حرارته الصوفية فيدخل أكثر وأكثر فى الذات الالهية الى حد الفناء فيها والغاء الثنائية بينه وبينها ، وهى هى نظرية الحلول التى عبر عنها أحد الصوفية ـ ولعله الحلاج ـ بقوله : « ما فى الجبة الا الله » ·

أصغ الى قوله :

قلت انى أبـدا أعشـقـه   وهـو لى يَعشـقْ
وأنـا مغـر بـه مشـرقـه   وهـوَ بى أشـرَقْ
فى ثنـاياه ومن يلحقـهُ   انمـا هـو الحـق

نو تروا حـــين تدلّى قـــدنا ســــــاعةَ الذكــــر
ومحــت وحــــدتنا اثنتنــا واختـــــف، ســـــــى،
ص، ٣٤

، نضع خطا تحت البيت الآخر . فهو ذروة التصريح بالوحدة القائمة بين العبد وربه ·

***

وننتقل الى كلام السيد/ أحمد الجلبى رحمه الله وهو ثلاث قصـــائد وزجل واحد ·

وقد جاءت قصائده باللغة الفصحى ·
أما زجله فيتنزل عن ذلك قليلا · ربما كثيرا ·

قال من قصيدة :

[صل يا ربى على من نوره]

صَـــــــــلِّ ياربّى على مَنْ نوره
يتجلى مستطيـــــــلا فى الحَلَكْ
يا حبيبـــــاً فى ضلوعى قـــد سَلَكْ
مَسلكَ الروحِ وقلبى قد مَلَكْ
كلمـــا ألتفِتُ فى قلبِ الحشــــا
مـــن مأوى ومشـــاوى فَهنىَ لكْ

والبيتان ١ ، ٢ معناهما واضح ، أما البيت الثالث فمعناه :

روحى لا تحب سواك ولا تعلق لها الا بك ·

***

ومن زجله الذى عنوانه [مرحبا شهر التهام] ·

بقصد التهامى وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، نسبة الى تهامة وهى قريش أو مكة ، وشهر التهام هو شهر ربيع الأول ·

قال :

مرحبا شـهرَ التهـامْ   مـولدُ خـير الأنـامْ
صاحب الحُسْنِ العجيبْ   الشفيـع يـوم الزحـامْ
الرسـول طهْ الحبيب
حـينْ أتى زيـن المـلاحْ   قــد أتـانا بالصـلاح
وتَمَّ العيش الخصـيب   هــو بـاب للنجـاحِ
بغيتى طـه الحبيب

ص ٥٩

ولا تعليق لنا سوى قولنا : انه زجل ضعيف فنيا ·

***

وبعد الجلبى نلتقى بالولى الأديب سيدى الداودى الفروى وقد شارك فى هذا المجموع بقصيدة وزجلين ·

أما القصيدة فقد صدرها بقوله ،

صـل يـارب على من فضـله
يتجـلى للورى يـوم التـلاقى
ياحبيبـا طـال عنى بالفـراق
ما الجفـا يصـلح بى بعد التلاقْ
ان دمـع العين بالحب جـرى
فوق خـدى واتقى طب المذاق

ص ٦٠

وهى قصيدة تأتى فى الدرجة الدنيا من السلم البلاغى ·
ولا يفضل زجله شعره ، بل انه يتدنى عنه الى ما تحت الصفر ·

قال :

يا قومْ اوتَحِشْ قلبى بمحبـــوبى
سُلطانْ المعاشــقْ ســيِّدِ الأمَّــا
أمْلَكنِى الهــوى وكتّرْت انحُوبى
ودمعَ الجفونْ تَهْطَل كهطل السّما
ابمتَا تنظروا ونَشفِى مرغــوبى
يَهْنَا حاطِرى وأتزولْ ذا الغمَّــا

ونشـــفى الغـــرامْ فى خـــير الأنـــامْ
ونبلــغْ مقــــــامْ الســــادات الكرامْ

ص ٦٧ ـ ٦٨

ومع أن هذا الزجل غير موزون ، وكان منتظرا ـ والحالة هذه ـ أن يكون واضحا لعــدم تقيده بوزن معين ، الا أنه كله أو بعضه فى حاجة الى توضيح ·

فعبارة [اوتحش قلبى بمحبوبى] تعنى أن محبوبى قد وحشنى ، وأن قلبى قد اشتاقه ·

و [سيد الأما] أى سيد الأمم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ·

أما [املكنى الهوى] فمعناها : ملكنى الهوى وصرت أسيره ·
و [كثرت انحوبى] معناها : كثر نحيبى وتعددت مراثه ·
و [المـا] قصر للماء الممدود
و [ايمتا] معناها : متى
و [السادات الكرام] هم الزهاد المتصوفون ·

***

ونصل الى أبى جمعه المدفون بتلمسان ، وقد قلنا ان قبره بها أحد مزاراتها وأن اسمه علم على حى من أحيائها وليس له فى مجموعنا سوى زجل واحد أوله :

يا ليلةٌ جاءتْ بانشراحْ	صباحُها أفضل صباح
يا ليلةٌ جاءتْ بالسرورْ	صباحُها يُسلى الصدور

ومنه :

لما بدا ضوءُ النهار	والصُبْحُ أشرقْ واستنارْ
هبَّ النسيمْ فاحْ الزهرْ	والياسمينْ اعنبْق وفاحْ

والوردُ والسَّبْسَانْ فَتّحْ

ص ٧٨ ـ ٧٩

وهو من بحر الرجز ووزنه
مستفعلن مستفعلن مرتين

أما أحمد التريكى وهو آخر أدباء هذا القسم ، فيظهر أنه كان من الظرفاء أكثر منه من الأولياء ٠

ولد بتلمسان أواسط القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى أوائل القرن الثانى عشر ٠ نبغ فى نظم الحوزى ، ولما كثر غزله ـ ولعله كان غير عف ـ ضاق الناس به ، وطالبوا السلطات باخراجه من المدينة ، فأرغمته على الهجرة الى [وجدة] حيث عانى آلام الغربة والشوق الى الأحباب ٠

وقد استفاد الأدب من ذلك ؛ فقد نظم أحمد فى غربته أروع شعره ٠

ونجد له فى هذا القسم ثلاثة أزجال ، هذا مطلع آخرها :

نِلتْ الغرامْ	بالله حادى القطارْ
قف لى بتلك الديارْ	واقرا السَّلامْ
سلّم على عَرَبْ تَجْد	واذكرْ صَبَابَتى ووجدى
كَيف يُسلامْ	مَن بادرته الدموعْ
شوقا لتلك الرُبوعْ	مع المقامْ

ص ١٠٠

وواضح أنه فى هذا الزجل له ينحرق شوقا الى مهبط الوحى . ويتمنى لو ذهب اليه وعاش فيه ٠

***

بهذا ينتهى القسم الأول من الكتاب ، وهو ـ كما رأينـا ـ فى مدح الرسول وتمجيده وفى الترحيب به وبشهر ربيع الذى أطلعه ، وقد رأينـا قطبه أبا مدين وهو يدخل فى ضمير الله ، أو على الأقل يقف وراءه بحيث لا نراه ٠

* * *

القسم الثـــانى

الموشحات والازجال الاندلسية

وهو يشتمل على ست وخمسين قطعة ، منها خمس وأربعون مجهولة القائل ، واحدى عشرة منسوبة الى اصحابها وهم أقل منها عددا ٠

وهذا بيان بهم وبأعمالهم حسب مجيئهم فى المجموع

ابن سهل الاندلسى وله توشيحان ص ١٠٧ ، ص ١١٣

الاعمى التطيلى وله توشيح واحد ص ١٤٩ وخمسة أزجال من ص١٥٢ الى ص ١٦٤ ٠

لسان الدين بن الخطيب وله توشيح واحد ص ١٦٥ ـ ١٦٩

الموصلى وله توشيح واحد ص ٢٢٥ ٠

محمد بن أخضر وله حوزى واحد ص ٢٧٢

وحق هذا الحوزى ان يكون فى القسم الثالث

***

ومن الطبيعى ألا يكون لهذا القسم موضوع معين أو اطار محدد

فموشحاته تعالج الموضوعات التى تعالجها الموشحات غالبا وهى الغزل القائم على ذكر محاسن المحبوب ووصف ما يلاقيه المحب من شوق ولوعة ، ثم وصف الطبيعة غاية أو وسيلة يجعلها بروازا لمفاتن المعشوق ٠

وأزجاله متعددة الأغراض مختلفة المقاصد

وما لاحظناه فى القسم السابق نلاحظه هنا ، وهو أن لغة الموشحات فصحى أو على الأقل سليمة ٠

أما الأزجال فعلى العكس من ذلك ، وغالبا ما تأتى ملحونة وفى منزلة وسطى بين الموشح والحوزى بل قد تكون لغتها قريبة من لغة الحوزى ، ولعله ـ لهذا اشتبه الأمر على محمد امرابط جامع الكتاب ، فوضع حوزى ابن أخضر فى هذا القسم [ص ٢٧٢]

***

ولا طاقة لنا هنا على عرض هذه الأزجال وتحليلها واستخلاص خصائصها الفنية ، فهي كثيرة كثرة مفرطة ، وتمثل — في هذا القسم — اغلبية ساحقة ويتأكد ذلك أكثر حين نذكر ان عددها ثمانية وثلاثون زجلا من مجموع الأعمال الأدبية فيه وهي — كما ذكرنا — ستة وخمسون ·

ولن يمنعنا ذلك من التجوال فيها والتمثيل لها وذكر بعض أغراضها ·

ولنبدأ بأولها الذى يفتتحه صاحبه المجهول مصنما بترتيب أبياته على احرف الهجاء هكذا :

أَلِفْ : أَلِفْتُ البُـــكا بعد الحبيبْ
التَّا : ثيابْ جَسمي تَحيلْ اصفرار
التّا : تَرى دمعي دماً يَجرى سكيبْ
الثّا : ثيابْ جَسمي تَحيلْ اصْفِرارْ
الجيم: جِماري فى الحَشا شَعَلَتْ وقود
الحا : حَرمْ عَن مُقلتي جيشُ الكرى
الخَا : خَشيتُ واشتَفا وفيّا المصود
الدال : دابْ جَسمي وفى قَلبي جَمرا
الذال : ذقتُ مِنَ الجَفا كأسَ الصُّدود
الرا : رويتُ مِنَ الهَوى ذُلَّ الورى

ص ١١٧ — ١١٨

وواضح ان موضوعه انما هو وصف حال المحب وما يعانيه فى سبيل محبوبه من أسى ولوعة ، أما معانيه فمتكررة ·

***

وهذا زجل ماجن عنوانه :

[املاكيوس الخلاعا]

يقول صاحبه فيه :

امــلا كيــوسْ الخَـلاعَا	تَستغنِموا أيامَ السُّرورْ
الدهرْ ســاعْا بِســاعْا	اغنَم زمانَـكْ لا يَدور
اغنَـــم زمــانك بواجب	افرحْ واسكَر مع الحبيبْ

فى روْض باهى الذوائبْ والطيرْ مِنْ فوقَ القضيبْ
بالــكيتْرا والربَــائِبْ والزنجَ والنَّقْــر العجيبْ
أمَّ الحَسَــنْ فى ارتفــاعَا تَفْخَرْ على جَمْعَ الطّيورْ
تغنيك عن جَمْعَ الصَّنَاعَا وتَلْهَمَكْ للكاسْ يَدورْ
ص ١٣٦ ــ ١٣٧

والزجال هنا خيامى النزعة فهو يدعو الى الخلاعة وشرب الخمر حتى السكر مع الحبيب على أصوات الموسيقى وغناء الطيور وبخاصة أم الحسن وهى طائر مشهور فى المغرب بالترديد العذب والتطريب الحنون .

***

ويستوقفنا هذا الزجل بلغته التى تكاد تسلم من الخطأ :

بــأبى ظبــى" ربنـربى آخجَلَ الشّمسَ والقَمَرْ
مــن بنى التّـرك أشــنبى قد حوى الحُسْنَ وافتَخَرْ
كــم عشــيق به سُبِــبى لازم النّحْبَ والسّــهَرْ
مائسْ قـــده القَــويمْ كامــلْ الزيْن مُبْتَهِجْ
ناحــلْ خَصْرهِ الهضــيمْ واللــواحظْ بهــمْ دَعَجْ
ص ١٥٤ ــ ١٥٥

الزجال المجهول هنا يصف المفاتن الجسدية لحبيبه ، وهو اذ يفتديه بأبيه يلفتنا الى ما شاع واشتهر من جمال نساء الترك ، ومعلوم أن تلمسان سقطت فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ٩٥٣ هـ ، وقد ظلت تحت حكمهــم الى أن استولى عليها الفرنسيون سنة ١٩٢٠ م .

واذن فاعجاب الزجال بجمال المرأة التركيــة اعجاب فى محله وعن بينــة .

***

ولا نعدم بين ازجال هذا القسم غزلا عفا يشبه أن يكون غزلا صوفيـا مثـــل :

يا عاشــقْ هذا النّــوى يــومَ بَانـــوا أحِبّتى
ذابَ ذا القلبْ وانــكَوى واشْتعَلَتْ نيرانْ زفْرتى

يا أخي صابني الهوى	عيدلي بالله اش حيلتي
اني بربي منتصر	ومن قصده ما يخيب
طال بي هذا الأمر	واوتحش قلبي للحبيب
يا كريم عقلي صار يغيب	واوتحش قلبي للحمى

ص ١٦٣ ـ ١٦٤

***

ومثـل :

بلغ الى أهل الديار	مني السلام
وقل لهم : الانتظار	زادني هيام
مالي على الهجر اصطبار	أو لا منام
جرى علي في المغيب	حكم القدر
ما كنت تطلب يا رقيب	اليوم حضر

ص ١٧٤

وهو زجل سليم من بحر الرجز ، ووزنه مستفعلن ثلاث مرات .

***

وهذا زجل فى التمنى والعتاب :

الله لا يقطع لي نصيب	حتى نقبل وجنتك
لاش الحبيب ينسى الحبيب	ما اصعب علي فرقتك
هذاك جزا قلبي الكئيب	اللي حصل في عشقتك
أنظر باش بدلتني	خدت الشمال عوض اليمين
اعلاش غزالي خنتني	الله يخون الخائنين

ص ١٧٩ ـ ١٨٠

***

وزجل يصف العشاق بأنهم رقاق النفوس ص ١٨١ ـ ١٨٣

وزجل فى وصف مجلس انس ص ١٨٤ ـ ١٨٦

***

وهذا زجل يتغزل صاحبه فيه بحبيبه غزلا ماديا بحتا ، فهو يصف قده ونهده ويستجديه قبله ثم يعاتبه على صده بقوله :

دعني نتعذب في وصلك   وانتجدد فيك ولاعا
حين نرى قدك ونهدك   ننسحر من نظر سعا
هات لي قبلا في خدك   يا شبيه ضي الشماعا
ذا النفار واش هكذا يبقى   متروقي في سوء حالي
العاشق يتعب ويشقى   هذا في عشقك جرى لي

ص ١٨٨

***

وزجل بعنوان [لاش تنحجب لا تنحجب] ص ١٩٢
وزجلان في وصف الربيع ص ١٩٨ وص ٢٦٠ .

***

وربما كان الزجل المقبل من الغزل بالمذكر وهو :

يا بو العيون النيام   عذبت قلبي الحزين
تخضع وترعى الذمام   عما كتب في الجبين
طايع لأمرك يا غلام   يا محنة العاشقين
اعطف وكف الجماح   تخمد لهيب حرحتي
يا بو العيون الوقاح   افنيت ما بغيتي

ص ٢٣٨

***

ولا يسعنا في ختام هذا القسم الا أن ننوه بغزارة مادته وصدق عاطفته وتمام ملاءمته للمتغنين به والمستمعين له .

ومن خصائصه الفنية البارزة :

انسجام نغمه ، وهدوء موسيقاه ، وتنوع الأوتار التي يضرب عليها في النفس الانسانية .

***

القسم الثالث

الحـــوزى

وقد سبق التعريف به . ومن الملفت للنظر فى هذا القسم ان نصوصه كلها موثقة بمعنى أن كل حوزى منسوب الى صاحبه فثلاثة الأحواز الأولى مضافة الى قائلها ابن مسايب وبعدها خمسة أحواز لابن التريكى :

ثم حوزان اثنان لمحمد بن سهله ، وحوزى واحد لابنه أبى مدين .

***

ونظرا لأن هذه الدراسة قد طالت بنا وتجاوزت حدها المرسوم لها ، فاننا سنكتفى بجزء من حوزى واحد لكل مؤلف .

ويسهل تقبل ذلك اذا علمنا أن الأحواز فى ذاتها طويلة بشكل واضح .

أولا : ابن مسايب

وهو ابو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب ، ينتمى الى أسرة أندلسية نزلت مدينة فاس ، ثم استقرت بتلمسان التى ولد بها فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

وقد عرف عنه حبه الأكيد لتلمسان وحزنه الشديد على ما أصابها من نكبات وكوارث .

ومع أن أول أحوازه فى تمجيدها والوقوف عندها بكاء على أطلالها ، الا أننا سنتجاوزه الى حوزه الثالث ، فهو يدل على اقتـــداره العجيب فى الصنعة .

واذا كنا قد أعجبنا فى القسم الثانى بزجل مشتمـــل على الحروف الهجائية بمعدل شطرة واحدة لكل حرف ، فاننا هنا نجد أن الابجدية العربية قد ظفرت بخمسين وثلاثين مقطوعة بمعدل مقطوعة لكل حرف ، وكل مقطوعة [illegible] ثمانية [illegible] الوشام] وهى [illegible] عنوان الحوزى مع ملاحظة أنه قدم للحوزى بمقطوعة مزدوجة وانه احتفل بحرف الألف [illegible] خصه باربع مقطوعات ، ربما لأنه الحرف الأول . ولكل أول اعزاز .

قال :

يَا الوشّامْ

يا الوشّامْ دخِيـلْ اعليك
كـن حازرْ فَاهَمْ نوصيكْ

اخْفَض والخَفض ايواتيكْ
أو رطّبْ يدكْ لا تاذيهـا

ما الوشام أو شَمْ ولفي
شيٍ أو شَام اطْرِ بف الكَف

أو رتّب احروف اهجا وصفي
في المراتبْ واهدابيهَـا

يَا الوشّامْ

دير ألِف : ألَفْ مِيـتّـا
مَنْ العَرب وانجوعْ آقويـّا

أو ركّبْ امحَال الونديّا
أو جابهَا البَاى أو حَابها

يَا الوشّامْ

أعمل ألِفْ ألفينْ ازنَاد
واعمَلْ اعسَاكَر والقيّاد

والطبْول اترعّد ترعادْ
والخَيول اتشَالي ليهـا

يَا الوشّامْ

أعمل ألِفْ ألَفْ مركوب
حربَتْ لِلميدان احروبْ

واهلْهـَا ما يَرضَاوا اهروب
كُلْ يَومْ أقمَرْ تجلبهـا

يَا الوشّامْ

اعمل الِف اجنَح مفني
وام لحسَنْ والطيُورْ اخرينْ

امنين يَنطقوا ابصَوتْ احنينْ
ايهَبّلُوا لدنيَـا واهليهـا

يَا الوشّامْ

دير البَا : بَهْجَةْ الأسرار

فالمَتْنَعِ وامنازْه وادْيارْ

او حصّن البِيبانْ أو الأصوارْ

واعمل العَسَّـا تَحْصِيها

يَا الوشّامْ

الوشام : صانع الوشم وهو زرع اللون الأخضر نقطا أو رسما أو اسما فى مواضع معينة من جلد الانسان ٠

اخفض : كن معتدلا فى الأجر ٠ الخفض = الغنى ٠ رطب يدك = خفف يدك فى الصنعة بحيث لا تؤلم من تشمهم وبخاصـــة حبيبتى فلا تؤذى يدها وانت تمارس وشمها ٠

شى أوشام : بعض الأوشام التى تجعل كف وليفى ظريفا ٠

أو رتب حروف اهجا وصفى : يعطيه التسلسل الأبجدى ليكتب بمقتضاه ويهتدى بهديه ٠

النجوع = جمع نجع والنجع : المكان فيه الكلأ ينتجعه الرجال الأقوياء أى يقصدونه نشدانا لما فيه من مرعى لأنعامهم ٠

امحال الونديا : أماكن العساكر الونداليين أى ارسمهـــم فى حالة استعراض السلطان لهم ورده على تحيتهم ٠ ازناد : بنادق : مجاز مرسل علاقته الجزئية ٠

الطبول اترعد ترعاد : ترعد ارعادا أى تصدر أصواتا عالية كالرعد ٠
والخيول اتشالى ليها : ترقص والمقصود هنا تقفز على وقعها ٠
مركوب : ما يركب من أفراس وجمال ونحوها ٠
حربت للميدان احروب : حاربت فى المعارك حروبا كثيرة عظيمة ٠
وأهلها ما يرضاوا هروب ٠٠٠ : وفرسانها لا يهربون وكل يوم يبرز من بينهم بطل معلم يحسه كل الناس كأنه القمر ليلة تمامه ٠ جناح = طائر : مجاز مرسل علاقته الجزئية ٠

مقنين : طائر مغرد ، ام الحسن : البلبل ·

امنين يطلقوا ···· : كلما غردوا بصوت حنون هيجوا الدنيا وأهلها الى درجة الافتتان بها وفقد الاتزان معها كأنهم جنوا ·

الاسرار : الأرواح · فالمتع : المتع · وامنازه : المنازه أى المتنزهات من حدائق ومياه جارية وأودية خضراء · واديار : والديار : جمع دار ·

العسا · العدس · تخطيها = تحرصها ·

وابن مسايب هنا ينصح الوشام بأن يكون حذرا وماهرا فى صنعته كى تكون متقنة ومريحة ·

وبأن يكون معتدلا فى تقدير اجره ، ويعــده بانه ان فعل ذلك ، فان عملاءه سيكثرون ، ويكون ذلك سببا فى غناه وخفض عيشه ويناديه ليوصيه بأن يشم وليقه على كفه وشما جميلا دون أن يؤله ثم يطلب منه أن يرصده وهو يسجل بحوزه حروف الهجاء مرتبة ليعرف تسلسلها أولا وليستوحى مقطوعاته فى صورة ثانيا ·

الألف :

ارسم الف مائة عربى ينتمون الى النجوع المشهورة بالباس والقوة ·

و ركب صورة تمثل الجنود الوندالين وهم فى أماكن تجمعهم يعظمون السلطان والسلطان يعظمهم أى اعمل صورة لجيش عربى أو أجنبى ·

والألف يمكن أن تكون طرة لصورة مكونة من ألفى بندقية ومن جيش كامل بعساكره وقواده ·

كما يمكن أن تكون طرة لصورة مكونة من ألف فرس حاربت حروبا هائلة وهى تثب من فوق الأرض بفعل الطبول التى تصدر أصواتا كالرعد ·

أما فرسانها فشجعان يقدمون ولا يحجمون ، وكل يوم يخرج من بين ارغتهم بطل ·

ويدله على أنه يمكنه أن يرسم العديد من الطيور التى تفتن الدنيـــا وأهلها بأصواتها الحلوة ·

تلك كانت مقطوعات الألف

أما مقطوعة الياء فمعناها : ان بهجة الأرواح وفرحتها تكمن فى المتع التى تكون أطرها المنازه والدور مع الشعور بالأمن ، ومن اجل هذا يجب تحصين الابواب والاسوار واقامة العسس للحراسة ٠

***

ثانيا : أحمد القريطى

ولد بتلمسان وعاش فيها وتوفى بها اوائل القرن الثانى عشر الهجرى٠

وقد سبق أن قلنا : انه الى الظرفاء اقرب منه الى الاولياء ، بسبب غزله المكشوف الذى جعل أهل تلمسان يتظاهرون ضده ويطالبون بنفيه وقد استجيب لهم حتى لا يفسد أخلاقهم واخلاق بناتهم وابنائهم ٠

وهذا الحوزى له وعلى وجه التحديد : الجزء الذى سنورده منـــه موضوعه : الشكوى مما يلاقيه من حب وعذل ٠

وهو فيه يحلم بالهناء واللعب والانبساط مع الحبيب بعـد أن يلبسه أغلى الثياب ويحميه من أية مشقة ومن أى عذاب ٠

وانه ليأمل أن تتحقق له هذه السعادة فى اطار من الجمال المسموع المتمثل فى موسيقى الطيور الباغمة كالضبا والفخوتوالأوز والحماموالیمام.

والجمال المرئى المتمثل فى الزهور من ورد ونسرين ونعناع ٠

لكنه يصحو من حلمه الحلو على واقعه المر وهو الحرمان الأليمفيعترف بأنه ابتلى بما لم يبتل أحد به من حرقة ولوعة وأسى ٠ وبأنه هو الذى ألقى بنفسه الى التهلكة : فرجله هى التى مشت به فى طريق حبه ، وعينه هى التى اكتشفت جمال محبوبه ، وبسبب معشوقه الذى لا صبر له على فراقه أهمل درسه ونسى لوحه وقرآنه

***

ولندعه هو يتكلم ، قال بعنوان :

[فيق يا نايم]

فيقْ يا نايمْ واستيقظ منَ المنام
واستغنىَ لكلامى يا خاىْ وافهموا
صاد قلبى محنتا واعذابْ وانتقامْ
ما قوينتْ اعلى هذا السرّ نكتموا
يا ابنانْ البهجا كنفشوا منَ الملامْ
سالموا للمنشور فىالزينْ سالموا
ياابناتْ البهجا كنفشوا منَ الخطاب
يستحق الزين ايكون امواجبوا
حسن كامل واهنا والبسط ولعاب
واللباسْ الغالى وما ابنا سببوا
ما ايخاف امشقتا ما يوسلوا عذاب
فى قنبْ وامعادى بالما اينسيبوا
والضباوالوزْ اوفاختْ امعَ الحمام
واليمامْ اينادى والطيور يبغموا
والزهر والنسرى والورد فى ابنسام
والحبقْ والخيلى بالليمْ يرجموا
سلموا يا الاريام الكل سلموا
يا بناتْ البهجا صادفتْ وابتليتْ
ولا ايتلى حدْا بنيرانى اوْ ليعتنى
راد لى الله واكتسب لى بالرجل مشيتْ
راو عينيا تهوالى او كيتنى
ضاعْ صبرى ودرتْ اجميع ماقريت
منَ اهوى ذالهيفات انسيتْ لوحتى

واعتذر عن هذا الطول فى التمثيل بأن عدد أبيات الحوزى الذى أوردت هنا صدره اثنان وسبعون بيتا عدا اللازمة التى كان يجعلها [سلموا يا الاريام الكل سلموا]

ــ كما هنا ــ مرة ، و [سلموا يا الاريام فى الزين سلموا إمرة أخرى على التوالى ، الى أن كانت المرة الأخيرة فجعلها

سلمُوا للمَشور فى الزينْ سلمُوا

المشور : هو الموكب الحافل بالمشاهد الجميلة كموكب الملك وموكب العرس ٠

ومعنى اللازمة الخاتمة على هذا : انه يطلب من الفتيات الجميلات المنافسات لمحبوبته عنده أن يسلمن لها بالغلبة على قلبه ٠

***

ولفهم هذا النص أكثر نعطى معانى مفرداته الصعبة وجمله الغامضة :
استغى لكلامى يا خاى : أصغ لكلامى يا أخى ٠

٨٩ محنا : محنة ٠

بنات البهجــا : هن بنات الجزائر العاصمة ، وكبنـــات كل حاضرة الشأن فيهن أن يكن جميلات أو على الأقل يغلب عليهن الجمال ٠

المشور ــ كما قلنا ــ هو الموكب الحافل بالمشاهد المثيرة كموكب السلطان وموكب الفرح : أى لا تجازفن يا بنات الحاضرة بالدخول فى تنافس مع حبيبتى فطريقها الى قلبى اقصر من طريقكن ٠

كفوا عن الخطاب : لا تدخلوا معى فى حوار من أجل موقفى من حبيبى وهو موقف الميل اليه والحب له دونكن ٠

يستحق الزين ايكون امواجبوا : فحبيبى المليح جدير بحبى له وانعطافى نحوه ومبررات ذلك حسنه الكامل وما أرجوه معه من هناء ولعب وانبساط؛ ومن اجل هذا اشتريت له اللباس الغالى الثمين ، وأرى مع ذلك أنه أقل منه ولا يناسبه ٠

ما يخاف مشقا ما يوصلوا عذاب : وسأضمن له الأمان من الزمان فلن يخاف مشقة ولن يصل اليه عذاب ٠

فى قبب ومعادى الما ايسيبوا : وسألتقى به فى الخيمات المقامة عند المياه الجارية حيث الطيور الباغمة المغردة ، والجو العطر بالورود والزهور والنسرين والحبق (النعناع) والليمون ٠

الاريام . الظباء : استعارة تصريحية ·

ابتليت : امتحنت · ليعتى : لوعتى وأساى ·

راو عينيا تهو الى اوكيتى : اشهدكم على أن عينى هى التى رات حسن حبيبى فأوقعتنى فى حبه الذى اكتويت بناره ·

ودرت : اهدرت ما تعلمته بسبب حبى لذلك الأهيف الجميل ·
انسيت لوحتى . نسيت قرانى الذى كنت قد كتبتـــه فى لوحى ثم حفظته ·

****

ثالثا : محمد بن سهلة

كان من الشعراء المشهورين بتلمسان وقد غلب على شعره الغزل الى ان توفى اوائل القرن الثالث عشر الهجرى ·

وحوزيه الذى سنورد هنا صدره بعنوان :

خاطرى بالجفا اتعذب

قال :

خاطْرى بالجفـــا اتعذَّبْ لَبْـــا يَنْسى الغـــزالْ
مسْبوغَة الانجالْ
نارها فالدليـــــل تَلْهَبْ حَرقَتْ جَوفى او جَيَّحتْ
غَصْـــنى وادبـــالْ
ما صبْتْ اطبيبْ للغزال اعْييت انســـــالْ
قَلْبى مَمْحونْ بالغـــرام ومَرضـــى طَـــــالْ
اســـبابى فَاطْمَـــا امتَيَّلتْ الخلْخَـــالْ
آش ادوَاهْ يـــا الطّـــالبْ
غَـــابْ ادْوَاهْ يـــا الطّـــالبْ

آلطّـالَبْ عيـدْ لِي الّرِيِّي
اْمْـريضْ الحّب بـاشْ يبْـرا
غَابْ ادوايـا أو غـاب طبِّي
افنيتْ او لاَ وجَـدتْ صَـبْرا
عَمْـدا لِي يـا طبيبْ قـلبي
ضَمْـرتْ لِي فالدليـل جَمْرا
كَـانْ انتيَـا لَبيبْ جـربي
سَبَّبْ لِي وافهَـمْ الِيشَـارا
شـوفْ لِي فالكتَابْ واحْسَبْ
كان انتَيا اطْفيت مَنى ذا المشْعال
ذاكْ اللّي شـرطتْ واجَبْ
تَضحى عَندك أخْديم مملوك ابلا مال
ص ٣٧١ ـ ١٩٧٣

***

انتهى ما أردنا اثباته من الجزئ الأول لمحمد بن سهلة ٠
وهذا هو شرحه تفصيلا أولا واجمالا ثانيا ٠
خاطري :بالى أى قلبى ٠

ابا : ابى ولم يرد نسيان حبيبتى التى تشبه الغزال الأكحل فى دعج العينين ونجلهما ٠

نارها فالدليل تلهب : نار حبها فى قلبى تشتعل ٠
ما صبت : ما أصبت أى ما وجدت مع أننى تعبت من السؤال ٠
قلبى ممحون بالغرام : قلبى فى محنة من حبى ٠

أسبابى فاطما امنيلت الخلخال : الصلات بينى وبين فاطمة هى صلات الحب والعشق من جانبى ٠ وهى فتاة ممتلئة الساقين فخلاخيلها تضغط عليهما وتترك فيهما آثارا زرقاء كالنيلة ٠

يمدحها بالسمنة وهو امتداد لقولهم [خرساء الأساور] ٠

آش ادواه الطالب : **ما دواء قلبى** يا طالب ، والطـــالب هو العراف الذى يمارس السحر ، ولا عجب ؛ فالبيئة مغربية ، ونحن فى الشرق نعتقد أن المغاربة هم الأصل فى ذلك ونتتلمذ عليهم فيه وهذا النص يؤكد ذلك ·

الطالب عيد لى الربى : كرر النظر فى كتبك واستفت نجومك لى من أجل ربى أى وحياة ربى ·

امريض الحب باش يبرا : هل يشفى المريض بالحب ؟ استفهام بلاغى غرضه التمنى · أو الرجاء ·

عمدا لى يا طبيب قلبى : أسرع الى وأغثنى يا طبيبى ·

ضمرت لى فالدليل جمرا : ألقت فاطمة فى قلبى جمرة فاستقرت فى عمق العمق منه وقديما قال كعب بن زهير : [فقلبى اليوم متبول]

كان انتيا لبيب حربى : ان كنت مجربا وماهرا ·

سبب لى وافهم اليشارا : افهم ما تقوله لك الكتب ، وما تشير به عليك النجوم فى أمرى ، ثم
شوف لى فالكتاب واحسب : اكتب لى حجابا يجعلها تحبنى

كان انتيا اطفيت منى ذا المشعال : فاذا أنت جعلتها تحبنى وتندى نار حبى لها بوصالها والقرب منها ·

ذاك اللى شرطت واجب : ان أنت نجحت فيما أنت بصـــدده من أمرى فانى سأشترط على نفسى شرطا واجبا على تحقيقه ·

نضحى عندك اخديم مملوك ابلا مال : اصير خادما عندك ومملوكا لك أى أعمل لديك وأخدمك دون أجر ·

***

والمعنى الاجمالى هو :

قلبى تعذب بالجفاء لأنه لم يرد نسيان حبيبته التى تشبه بعيونها النجل

الغزال الأكحل ، ولأنه لم ينس فان نار حبه قد التهبت فى قلبه وأحرقتـــه وقيحته حتى ذبل جسمه ٠

ولقد أعياه البحث عن طبيب فلم يجد ، وقلبه لهذا فى محنة بغرامه وسقامه قد طال

ويضيق بكتم سره فيصرح باسم حبيبته ونعرف أنها فاطمة ذات الساقين المتلئنين ، وخلاخيلها لهذا تترك على بشرتها آثارا زرقاء تشبـــه النيلة وبالاجتهاد فى البحث اهتدى الى عراف أى منجم ، فأخذ يسأله عن دوائه ما هو ؟

ويغلبه اليأس على آمره فيقرل . غاب دوائى يا عراف فبالله ساعدنى وأجبنى : هل يشفى مريض الحب ؟

ولا يجد تقدما فى حالته ، فيقول متحيرا : افتقدت الطبيب المعـــالج والدواء الشافى ٠

***

ويرى انه قد تحل بعد فقد صبره فيطلب من المنجم أن يعيد النظر فى كتـــابه وان يكرر سؤال النجوم عن أمره ، ويعقد معه صفقة مضمونها أن يخلصه المنجم من عذابه بجعل فاطمة تحبه وتشفيه من مرضه بوصلهـــا له وقربها منه ٠

اذا حقق له المنجم ذلك اضحى خادما عنده ومملوكا له أى عاملا لديه بلا أجر ٠

رابعا : بومدين بن محمد بن شهلا

سلك بومدين مسلك أبيه محمد فى نظم الحوزى والاكثار من الغزل وقد برع فى وصف الحبيب ومجـــالس الأنس والطرب وذكر آلام الفراق والهجران ٠

فقد بصره فى آخريات عمره ، وتوفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ٠
وحوزيه الذى ختم به محمد بن محمد امرابط مجموعه عنوانه :

[سيدى ومن يسال على كحل العين]

وقد صدره بقوله :

سيدي ومَنْ يسَال اعلى كحل العين
سيدي ومَنْ يسَالْ اعلى كحل العين
سيدي ومنْ يسَال اعلى رمقات الغزالْ
الشاذينْ الحلا الاجدلْ بو قرنينْ
سيدي ومن يسال اعلى طالقة الدلال
اخيرَ الغــزالْ والنفِي كاملَةْ الزيـن
اللي اضحاتْ كودا درقت شَقّ الجبالْ
بينَ الحسود ليهَا مَا صبتْ امنينْ
لا رصامهَا اخلاقِي طَارْ والقلب مالْ
والروحْ والعقلْ طَارْ ابلا جنحين
خلاتني اهبيلْ نسولْ بَينَ الرجَال
مَا كانْ مَنْ اعذرني يا مسلمين
٣٨٩ — ٣٩٠

الكحل : سواد منابت شعر الأجفان خلقة ومنه المثل :
« ليس التكحل فى العينين كالكحل » .

رمقات الغزال : نظراته . والغزال هنا هو المحبوب ، فالصورة بلاغية : **استعارة تصريحية :**

الأجدل : المفتول القوى الرشيق .
طالقة الدلال : ذات الدلال الآسر الأخاذ فى كل قول لها أو فعل .
اخير الغزال : خير الغزلان .
كاملة الزين : كاملة الحسن .

اللى اضحات كودا : التى صار أمرها صعبا على وعقبة كأداء فى طريق حبى لها .

ورقت شق الجبال : توارت واختبأت فى شقوق الجبال · كناية عن منعتها ·

ما صبت امنين : لم أجد منفذا يوصلنى اليها أو شخصا يدلنىعليها ·

لا ارصامها أخلاقى طار : بسبب جمالها الساحر لم أعد قادرا على التمآسك والالتزام بقواعد الأخلاق وآداب السلوك ·

***

ينادى بومدين من سأله عن حبيبه كحيل العين الذى يشبـــه الغزال الرشيق الأنيق ساكن الخلاء ذا القرنين ·

قائلا : سيدى يامن تسأل عن حبيبى صاحب الدلال المفرط والجمـال المطلق ·

انه قد اضحى مستعصيا على بعد أن استعصم منى بسكناه فى شقوق الجبال ، وبعد أن قام حساده بحراسته حتى صار من الصعب على أن أجده أو أصل اليه ·

رسمه الجميل ضيع أخلاقى أى جعلنى ـ وأنا الوقور ـ أفقد توازنى ·
لقد احببته بكل قلبى ،
وبلا أجنحة حلقت روحى فى أفقه ، وكذلك عقلى ·
آه من حبه الذى هيمنى وجعلنى أهبل لا أتكسب بل أتسول ·
ماذا ؟ أليس فى المسلمين من يعذرنى ؟!!

***

بهذا ينتهى القسم الثالث والأخير من الكتاب وهو الحوزى ·
واذا كانت لنا وقفة عنده أو بعده فلكى نقول :

انه من الأدب الشعبى المغربى فى الصميم ، وبحسبه أنه غطى كثيرا من الحاجات الفنية والذوقية لكثير من الناس ، وأعطى المتعـــة الموسيقية لمنشديه وسامعيه فلهذا ألف ووظف ·

ولقد أدى ما أريد له أن يؤديه فى قلوب وعقول وأرواح سكان تلمسان ، لا فى زمن محدد بل فى أزمان متطاولة وممتدة الى الآن ·

وكان الحوزى قد نال شهرة عظيمة فى العهد العثمانى ، واستحوذ على اهتمام المؤلفين والملحنين ، فوضعوا القواعد المحكمة لتأليفه وتلحينه بل ولكتابته ·

فضمير الغائب (هـ) تكتب واوءمد [قبلتو] بدلا من [قبلته] والتاء المربوطة فى آخر المؤنث تكتب ألف مد [فاطما] بدلا من [فاطمة] ليلائم المكتوب المنطوق ·

ونجد ألفا غير مهموزة أمام كثير من كلماته أفعالا كانت أو أسمـــاء أو حروفا ، وهى ألف موسيقية تزاد لتسهيل الانشاد ·

وهذا الخلق للأصوات وتطويل القصير منها يعطى فرصة طيبة للوترين الصوتيين ، فهى تسمح لهما بالتذبذب العذب ، والانفتاح الرحب على العديد من الألحان ·

***

وما ذكرناه معناه أن الحوزى لم يكن — فى كتابته — يخضع لقواعد الاملاء ، كذلك لم يكن يلتزم بالقواعد العربية من نحو وصرف وعروض · ثم ان الكلمة أو الجملة فيه قد يكون لها مفهوم خاص لا يدركه الا من له خبرة باللهجة المحلية المغربية ·

***

اما بعـــد :

فهذا عرض وتحليل لكتاب [الجواهر الحسان فى نظم اولياء تلمسان] قمت به من موقع العمل فى معهد الاداب والثقافة العربية بجامعة قسنطينه أستاذا زائرا فى ابريل سنه ١٩٧٨ ·

خدمة للتراث الأدبى فى المغرب العربى ، ووصولا به وبمحتواه الى كل محب له ، وراغب فى التعرف عليه والاستزادة منه ·

***

أجزل الشـــكر وأعمق التقـــدير للأستاذ الفاضل والعـــالم المحقق عبد الحميد حاجيات ·

على اظهاره هذا الكتاب **القيم بالمظهر اللائق** ٠

تنفيذ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر المحمية **سنة ١٣٩٤ هـ** ١٩٧٩ م ٠

وفى الحق انه أثرى به وبغيره مما حققه أو الفه مكتبتنا العربية فى المغرب والمشرق ٠

جزاه الله عن جهوده العلمية المخلصة خير الجزاء ، آمين ٠

د ٠ عبده عبد العزيز قلقيله

قسنطينة فى ١٩٧٨/٤/٢٧

***

٣ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية

هذا الكتاب من كتب التراث التى الفها الشيوخ المغاربة ، واثروا بها ـ فى حينها ـ دنيا العلم والأدب .

والى الآن لا زلنا نستمد منها ونأخذ عنهـــا متاثرين بها ومتفاعلين معها ونحن نبنى كياننا الفكرى . سواء بالقراءة والدرس ، أو بالكتـــابة والتأليف

وأجدنى مشدودا جدا الى التراث المغربى ، لست أدرى لماذا ؟
هل هى المعايشة للمغاربة ومؤاخاتهم ؟
أم أن المسألة نفسية بحتة ؟

ذلك أننا ربينا وعلمنا حتى حصلنا على أعلى الدرجات العلمية ، ومع ذلك لم يعترض طريقنا او لم يرد لنا أن يعترض طريقنا رافد مغربى ذو بال .

فدرجنا ونحن نجهل الأفق المغربى وتراثه .

وترتب على ذلك اننا نشأنا بل كبرنا دون أن نتوقع من اخوتنا المغاربة شيئا اى شىء .

***

حتى اذا أراد الله لنا الاتصال بهم . والانتقال اليهم ومشاركتهم فى اكتشاف ذواتهم ، ونفض غبار التاريخ عن امجادهم ، أخذنا بما عندهم من علم وأدب ، ومن علماء وأدباء ، وكان احساسنا بذلك صدمة لنـــا وتأنيبا لضمائرنا على ما كان منا من قصور فى حق أنفسنا وتقصير فى حق اخوة لنا يحبوننا وينظرون الينا على أننا مطلع الاشراق لعروبتهم وأصحاب الفضل فى حمل أمانة اللغة والاسلام اليهم .

ولم نكن ندرى ان المغرب العربى حافل بكنوز من المعرفة تخصيهم وتكفينا معهم لو اقتصرنا عليها .

فما الظن بنا لو أننا ـ مشارقة ومغاربة ـ تداولنا ما عندنا ،وتبادلنا

المنافع فيما بيننا ، فكمل بعضنا بعضا ، وأعطى كل منا لأخيه ما لديه نظير أن يأخذ منه ما عنده ، وهما عطاء وأخذ لا يترتب عليهما فقد أو ما يشبه الفقد ، بل على العكس يترتب عليهما الوجد والزيادة ؛ فمن المســـلم به أن شيئا لا يزاد فيه بالأخذ منه الا العلم · والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ·

***

والآن مع هذا السفر القيم :

[**عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية**] :

وهو مما ألفه قاضى قضاة بجاية وعين أعيانها ومقدمها فى محافلهــا وسفيرها فى مهامها ابن بجدتها **أبو العباس أحمد بن أحمد الغبرينى** على اختلاف فى اسم أبيه : هل هو أحمد ـ كما هو الراجح ـ أو محمد ·

***

والكتاب من تحقيق العالم الأديب رابح بونار ، ومن مطبوعات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م ·

وسأوزع هذه الدراسة عنه على النقاط الآتية ·

(أ) **بجاية** ·
(ب) **المؤلف** ·
(جـ) **الكتـــاب** ·

أما الأخ المحقق فقد كنت اظن انه سهل مهمتى ويسرها لى بما قدم به بين يدى التحقيق الثالث للكتاب ·

أجل فقد حققه قبله المغفور له الأستاذ الدكتــور محمد بن أبى شنب طيب الله ثراه ·

وحققه قبله أو معه الأستاذ عادل نويهض ·

لكن النسخة الأم لهذه الدراسة هى النسخة المحققة من قبل الأستاذ

الفاضل رابح بونار ؛ ومعنى أنها النسخة الأم أن النسخة التى حققها الأستاذ الفاضل عادل نويهض معى وتحت يدى . وهى مطبوعة فى بيروت سنة ١٩٦٩ م ٠

***

أعود فأقول : كنت أظن أن الأستاذ رابح بونار قد سهل مهمتى ويسرها لى ٠

لكن ها أنذا أقرر أنه قد جعل مهمتى صعبة ، بتقديمه القيم للكتاب وبتعريفه الوافى به ٠

اذ ماذا أقول بعده ؟

ومع هذا فالحمد لله ، لقد استنرت بما كتب ــ وهو كثير ــ فى الاحاطة بالكتاب ومعرفة دروبه ومسار به ٠

***

ولكن واضحا أن ما أكتبه هنا ليس له من غرض سوى التعريف بالتراث المغربى ، دلالة عليه ، وتشويقا اليه ، واغراء به ٠

وكل ما أرجوه أن يقرأه "ولئك الغافون الغافلون عما للمغرب العربى من التراث الأدبى ٠

***

بجـــاية

[بجاية] كما يسميها العرب ·

يقول ابن خلدون : ان موقع بجاية كان قرية تسكنها قبيـــلة بربرية تسمى بجـــاية أو [نقاية] فأطلق هذا الاسم على المدينـــة وسميت به على عادة البربر فى اطلاق اسم أول قبيلة تنزل بموقع ما على ذلك الموقع ·
و [بوجى] بالنطق الفرنسى أى الشمعة ·

وربما كانت هذه التسمية آتية من شهرة بجاية بصنع الشمع والاتجار فيـــه ·

***

و [الناصرية] كما جاء فى شعر جيد لحسن بن فكون القسنطينى قال :

دع العـــراق وبغـــداداً وشامهما	فالناصرية ما ان مثلهـــــا بلد
ان تنظـــر البر فالأزهار يانعـــة	أو تنظر البحر فالأمواج تطـــرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا تصف	قل:جنة الخلد فيها الأهل والولد

وقد صدق ابن فكون ·

فبجاية مدينة جميلة تقع على شاطىء البحر الأبيض فيما كان يعرف قديما بالمغرب الأوسط ، وهى تبعد عن قسنطينة بمقدار ٢٢٧ ك·م · الى الشمال الغربى وعن الجزائر العاصمة بنحو ٢٨٥ ك·م ·

وموقعها الجغرافى على خط طول ٩٠ر٥ شرقى خط جرينتش ، وخط عرض ٤٩ر٣٦ شماليه ·

***

و [الناصرية] نسبة الى الناصر بن علناس رابع ملوك بنى حمـــاد الصنهاجيين وقد شرع فى بنائها سنة ٤٦٠ هـ . ولما أتمها انتقل اليها ، لكنه لم يقم فيها بصفة نهائية ، بل كان يتردد عليها وعلى القلعة ·

وفى سنة ٤٨٢ هـ ١٠٩١ م انتقل المنصور ابنه اليها نهائيا .

ومن ذلك الوقت صارت عاصمه الحماديين ، ومن أهم مدن المغرب .

وما ظنك بمدينه بناها الناصر وأبدع فيها قصر اللؤلؤة ؟!!

وشيد بها المنصور قصر أميمون ومسجدا كبيرا تزينه منارة عالية وواجهة بها سبع عشرة باكية ، أما المياه فقد جلبها لها من الجبال المحيطة بها بواسطة القناطر المعلقة .

وما زال الحماديون ببجاية حتى صارت مكونة من سبعة عشر حيا تضم عشرين ألف بيت واثنين وسبعين مسجدا .

وقد أشاد المؤرخون فى العصر الحمادى [٤٠٥ - ٦٤٦ هـ] وفى العصرين الموحدى والحفصى [٦٤٧ - ٩١٠ هـ] بحضارتها وعظمتها .

جاء فى دائرة المعارف للبستانى أن [الناصرية] وهو الاسم الذى أطلقه الناصر على بجاية لما تم بناؤها قصدها الناس برا وبحرا .

وفى القرن السادس نجد الشريف الادريسى يصفها بأنها قاعدة بنى حماد بدل القلعة ، ومن كلامه عنها هذه النبذة قال :

بجاية فى وقتنا هذا (٥٤٨ هـ) مدينة المغرب الأوسط ، وعين بلاد بنى حماد ، السفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة ، والأمتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع نافقة ، وأهلها مياسير يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران ، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، أما الصناعات فان بها منها ما ليس بكثير من المدن .

***

وقد كانت بجاية - على عهد الغبرينى والى ما بعده بأكثر من قرنين - بيئة علمية نشطة ، وكعبة يقصدها طلاب العلم والأدب ، بل يقصدها العلماء والأدباء من بلاد الأندلس غربا الى بلاد فارس شرقا .

وبحسبها علماؤها الذين ترجم في عنوان الدراية لهم وعددهم عشرة ومائة ويمكن القول لهذا بأنها كانت العاصمة العلمية للمغرب الكبير بعامة والمغرب الأوسط وهو الجمهورية الجزائرية الحالية بخاصة ٠

***

هذا عن بجاية قديما ٠

أما بجاية حديثا ، فقد زرتها يوم ١٩٧٢/٤/٣٠ وشاهدت فيها قصر اللؤلؤة الذى بناه الناصر . وقد كان أحد عجائب الدنيا ، وهى تشبه مدينة بورسعيد المصرية فى موقعهـــا على البحر الابيض المتوسط وفى تحضرها ، والقلعة التى تحيط بها تشبه قلعة صلاح الدين فى تحصينها وعلوها ، فيها قصر العروسين الذى بناه الناصر ، ويطل على القلعة وبجاية معا أعلى منار فى العالم وهو المنار الذى بناه المنصور بن الناصر ٠

وفى هذا الخضم الحافل بالآثار التاريخية توجد عين سلام وهى عين بالوادى المعروف بوادى جراوه من نواحى القلعة ٠

***

المؤلف :

هو أحمد بن أحمد بن عبد الله · كنيته أبو العباس ، ولقبه الغبرينى نسبة الى أسرته [بنى غبرين] وهى بطن من قبائل الأمازيغ · كانت تقطن بضواحى [اعزازقه] فى أعلى وادى [سباو] بالقرب من بجاية ، وقيل : بل فى بجاية نفسها ·

ولد سنة ٦٤٤ هـ ·

ومات مقتولا فى سجنه سنة ٧٠٤ هـ كما قرر الأستاذ رابح بونار وهو القول الراجح ·

أو سنة ٧١٤ هـ بالطاعون فى بجاية ، ويؤكد هذا الأستـــاذ عادل نويهض ·

***

حفظ القرآن الكريم ، وعنى بقراءاته ورسمه فى صغره ، ولما شب عن الطوق درس التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والتاريخ والمنطق وعلوم اللغة والأدب ·

وبعد أن تقدم فى دراسته أخذ يحضر الحلقات العلمية التى كانت تعقد بالمساجد الكبيرة كالمسجد الأعظم ببجاية وكجامع الزيتونة بتونس ·
جاء فى برنامجه أنه درس علوم الدراية وعلوم الرواية :

والأولى تحتاج الى اعمال الفكر والنظر والاستنباط ·

أما الثانية فلا تحتاج الا الى السماع والحفظ ·

كما جاء فيه أن طرق التدريس ببجاية على عهده كانت تختلف من شيخ الى آخر فمنهم من كان يسلك الطريقة التقليدية وهى الطريقة الالقائية، ومنهم من كان تعويله على الحوار والمناقشة ، والتعمق فى البحث والتعليل·

وقد أفاد الغبرينى من الطريقتين فى تكوينه الفكرى ، ولو أننا نراه فى كتابه الى الرواية أقرب منه الى الدراية ، ومن التسليم بما يسمع أو يقرأ أقرب منه الى فحصه ونقده لقبوله أو رده ·

فقد كان يؤمن بالكرامات ويعنف على من يعمل فيها عمله ٠

ذكر فى ترجمته لابى عبد الله العربى ص ٨٠ ان هذا الشيخ المبارك الصالح كان يحج من بجاية فى بعض العشر من ذى الحجه ٠

ولكى نصدقه فى ذلك يذكر ان جفنا وصل من ناحيه الشام الى بجايه وكان أبو عبد الله واقفا بحومة باب البحر فراه النصرانى صاحب الجفن وقال له : يا سيدى ٠ مزودت الذى دفعته لى بالشام منذ ثمانيه ايام وحلف على ذلك ٠

ثم يستطرد : «لما كان عام الاركش [الأراك] احتزم فى يوم من الايام وركب قصبة ومسك قصبة اخرى فى يده عوضا عن مزراق ، وجعل يكر ويفر وهو يتفصد عرقا الى أن رمى بالقصبة من يده ضاربا فى جهة عدوه وقائلا عند رميها « فى سبيل الله » ٠

وسقط على الأرض من شدة جهده ومبلغ كده،فأرخ ذلك الوقتمناليوم فكان هو اليوم الذى هزم الله فيه النصارى وهو يوم الأربعاء التاسع لشعبان الحرام عام ٥٩١ هـ ٠

يقول الغبرينى « فكان رضى الله عنه فى جملة المجاهدين ذلك اليوم وممن أعان الله به المسلمين وأوقع الهزيمة على يده » ٠

والمهم فى هذا الخبر تعليق الغبرينى عليه بما سبق ، وبقوله بعده :

« وقد يقع فى هذا الانكار من ملحد لا علم له ، وحقه الاعراض عنه وعدم الالتفات اليه ، وان زاد فيصفع على وجهه عوضا عن قفاه » ٠
ص ٨١

***

الى هذا الحد كان الغبرينى يصدق أمثال هذه الحكايات ، وكتابهحافل بالكثير منها ، يرويها على أنها حقائق مسلمة لا تخضع للمناقشة ٠

فقد كان ساذجا اذن ٠

والعجب أنه لما ولى القضاء بدا « مهيبا ذا معرفة باصول الفقه وحفظ

.مروعه وقيام على النوازل وتحقيق للمسائل » كما يقول ابن الحسن النبهانى بحق فى كتابه « قضاة الأندلس ص ١٣٢ » .

فقد كان الغبرينى وهو قاض يتشدد فى التزام الأحكام الشرعية وينكر على من يخالفها من أدعياء التصوف ، ويرى أن نفيهم — لذلك — من البلد قليل ، وانما الواجب أن يعاملوا بأسوأ التمثيل ويقول :

« هؤلاء جملة اغبياء : لا علم ولا عمل . ولا تصوف ولا فهم ، وهم مع ذلك يجهلون الناس ، ويعتقدون أن مبناهم على أساس » .

لكن لا عجب ؛ فهو التذبذب بين الرواية والدراية ، والتردد بين المنقول والمعقول ، وكل اناء بما فيه ينضح .

***

الكتــــاب :

بعد أن تكلمنا عن بجاية وعن المؤلف ـ المسرح والبطل ـ نتكلم عن الكتاب نفسه ، وسنتناوله من هذه النواحى :

(أ) غرضه وموضوعه ·

(ب) عرضه وتحليله ·

بتصنيف المترجم لهم فيه حسبما غلب على كل صنف منهم من علم ، ونوع هذا العلم ، أو أدب ، ونوع ذلك الأدب ، أو تصوف ، وهل هو تصوف سنى أو فلسفى ·

وأيضا تصنيفهم بالنظر الى زمنهم ،ومنخلالهمسنتعرف على مشيخة الغبرينى التى كانت هى السبب المباشر فى تأليف هذا السفر القيم ·

أجل ، فقد عرف المغرب ، وكذلك المشرق هذا النوع من التأليف تحت اسم الثبت أو البرنامج أو المشيخة ·

يترجمون فيه لأساتذتهم بتحديد أعمارهم وتوضيح مسارهم فى حياتهم وفى دروسهم ، والعلوم التى تلقوها عنهم ، والكتب التى قرأوها عليهـــم ويذكرون انتاجهم الذى أنتجوه وما اشتهروا به بين ذويهم وغيرهم ·

***

واذا كان للأستاذ ـ بدوره ـ مشيخـــة ذكروها وعرفوا بها ، ولربما تعقبوه فى تلاميذه الذين أسهم بقدر كبير فى تكوينهم حتى صاروا امتدادا له ، وعنوانا عليه ، وطلابا نابهين فى مدرسته ·
ونختم هذه الدراسة بكلمة موجزة عن : ـ

٣ ـ أسلوب الكتاب ومنهج صاحبه فى تأليفه ·

ـ ١ ـ

غرض الكتاب وموضوعه

افصح المؤلف عن غرض الكتاب وموضوعه بقوله فى مقدمته : ـ

أما بعد : فانه لما كان طلب العلم اللدنى (الدينى) فرضا على الكفاية ، ومنعينا فى الحال ، ولم يكن بد فى تحصيله من تلقيه عن الرجال وكان التلقى اما مباشرة أو عن سند ذى اتصال ، وكان العلماء بذكر معرفته ، والسند عنه لا بد أن تعرف صفته : فلذلك اهتم العلماء بذكر الرجال ، واستعملوا فى تمييز أحوالهم الفكر والبال ، ليبينوا سبيل التحمل ، ويبينوا وسيلة التوصل ، وقد اختلفت فى ذلك مصادرهم ومواردهم ، وان اتفقت فى بعض الوجوه مقاصدهم :

فمنهم من ذكر التجريح والتعديل فى المحدثين ·
ومنهم من ذكر من يعرف بالحفظ والاتقان من المتقدمين ·
ومنهم من اقتصر على ذكر العلماء المجتهدين ·
ومنهم من ذكر المؤلفين والمصنفين ·
ومنهم من ذكر الصلحاء والمتعبدين ·
ومنهم من ذكر علماء وقته ·
ومنهم من اقتصر على ذكر مشيخته ·
وكل ذلك يحصل الافادة ، ويسهل للطالب مراده ·

رأيت أن أذكر فى هذا التقييد من عرف من العلماء ببجاية فى هذه المائة السابعة التى نحن فى بقية العشر الذى هو خاتمتها ، أذكر منهم من اشتهر ذكره ، ونبل قدره ، وظهرت جلالته وعرفت مرتبته فى العلم ومكانته »

***

الى هنا والغرض واضح والموضوع محدد ·

لكن المؤلف رحمه الله قد رجع الى الوراء قليلا ليصل نهاية القرن السادس ببداية القرن السابع ، ها هو ذا يقول : ـ

« وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ذكر الشيخ أبى مدين

والشيخ أبى على المسيلى ، والفقيه أبى محمد عبد الحق الاشبيلى رحمهم الله ورضى عنهم ، لقرب عهدهم بهذه المائة ، لأنهم كانوا فى أعقاب السادسة للتبرك بذكرهم ، ولانتشار فخرهم » ٠

ولم يقتصر الغبرينى على الثلاثة الذين ذكرهم بل أتبعهم بأربعة غيرهم سنعرض لهم ٠

وقد بدأ بهؤلاء السبعة وثنى بمشيخته على الوجه الآتى :ـ

ـ ٢ ـ

عرض الكتاب وتحليله

علماء القرن السادس

بدأ الغبرينى فعرف بالولى الصــالح ابى مدين شعيب بن الحسين الاندلسى المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ووصفه بأنه الشيخ الفقيه المحقق الواصــل القطب شيخ مشايخ الاسلام فى عصره ، ومثل لذكائه وحسن تصرفه ومدى الكشف عن بصيرته بحكاية فحواها أن شمواهب لا تسعها المكاسب قال :ـ

أخبرنى بعض الأصحاب أن بعض الطلبة وقع بينهم نزاع فى بعض الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله عليه السلام : ـ

« اذا مات المؤمن أعطى نصف الجنة » فتردد الكلام بينهم فى أن مؤمنين اذا ماتا استحقا الجنة وبقى الناس أجمع دون شىء ، فساروا الى مجلس أبى مدين ليطلعوا على ما عنده فى المسألة ، فلما استقروا بمجلسه ترك الشيخ كلامه الذى كان يتحدث فيه وقال : نزيل عن أصحابنا الاشكال ، ثم قال : ـ

أراد صلى الله عليه وسلم نصف جنته ، وبعد الحشر يعطى النصف الثانى من جنته . فبعد البعث تكمل له جنته ٠

وبعد ذكر بعض كراماته يحكى نهاية حياته على الوجه الذى ذكرناه فى الحلقة السابقة ٠

ويختتم ترجمته له بصفحتين من مأثور كلامه كقوله :

« ثمرة التصوف تسليم كلك » .
« مروءتك اعطاؤك عن تقصير غيرك » .
« من شغل مشغولا بربه ، أدركه المقت فى الوقت »
ص ٥٦ ـ ٦٥

***

ولا نجد فى ترجمة المسيلى أكثر مما وجدنا فى ترجمة أبى مدين .

واذا كان الناس يلقبونه بأبى حامد الصغير ، تشبيها له بالغزالى . فان الغبرينى يجعل سبب ذلك كتابه [التفكير فيما تشتمل عليه الآيات من المبادىء والغايات] .

فهو كتاب جليل سلك فيه مسلك أبى حامد فى كتاب [الأحياء] ويستطرد مبالغا فيقول : ـ

« وكلامه فيه أحسن من كلام ابى حامد واسلم ، وهو كثير الوجود بأيدى الناس ، وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وايثارهم له » .

وما بعد ذلك حكايات أولياء يقولها معجبا بها ومصدقا لها ، وهذا هو الغبرينى دائما ص ٦٦ ـ ٧٢ .

***

وثالث أهل القرن السادس هو الأشبيلى .

والغبرينى لا يكل ولا يمل من اضافة كل صفات الفضل الى من يترجم لهم . ها هو ذا يستهل كلامه عن الاشبيلى بقوله :

الامام الشيخ الفقيه الجليل المحدث الحافظ المتقن المجيد العابد الزاهد القاضى الخطيب .

اثنتا عشرة خصلة ، أى أنه يثنى بالجملة شكر الله له فضله، فلأنه جميل يرى الوجود جميلا .

والاشبيلى ثرى بمؤلفاته التى تداولها العلماء رواية وقراءة وشرحا وتبينا ٠

له الاحكام الكبرى فى الحديث ، والاحكام الصغرى فيه ، وله كتاب فى علم التذكير وله كتاب التهجد ، وله اختصار الرشاطى ، يقول الغبرينى : ـ

وهو أحسن من الاصل ، وله الحاوى فى اللغة ، ثمانية عشر مجلدا ومع أنه كان متخليا عن الدنيا ، فقد كانت الوصيفة من داره تأتى الى مجلسه لقضاء بعض مآرب منزله ، فاذا أتته تطلب منه ما يقضى بالشىء اليسير ، يخرج لها أضعاف ذلك ، وربما قال له بعض الحاضرين : ـ

هذا اكثر من المطلوب ، فيرد عليه بقوله : ـ لا أجمع على أهل المنزل ثلاث شينات : شيخ واشبيلى وشحيح ٠ تكفى اثنتان ٠ يقول الغبرينى وهذا من لوذعته وطيب طينته ص ٧٣ و ٧٥ ٠

***

وكما قلنا ٠ لم يقف الغبرينى من علماء القرن السادس عند الثلاثة الذين ذكرهم ، فها هو ذا يتبعهم بترجمة مسهبة لأبى طاهر عمارة بن يحيى ابن عمارة الشريف الحسنى الذى كان متقدما فى علم العربية والأدب وتواشيحه لهذا فى غاية الحسن ٠

هكذا قال الغبرينى ، والشعر الذى أورده له يؤيد كلامه ٠

***

أما ابنة عمارة المسماة عائشة ، فقد كانت كأبيها أديبة أريبة فصيحة لبيبة طارحت بشعرها ابن فكون القسنطينى ٠

يذكر الغبرينى أنه رأى يتيمة الدهر للثعالبى بخطها فى ثمانية عشر جزءا ، ويصفها بأنها « نسخة عتيقة ما رأيت أحسن منها ولا أصح ، ولقد رأيت منه نسخا كثيرة منتقدة الا هذه النسخة ، ولقد يجب أن تكون هذه النسخة أصلا لهذا الكتاب حيث كان » ص ٧٦ ـ ٨٠

***

وبعد عائشـــة وأبيها عمـــارة نجد ترجمتين لأبى عبد الله
ص ٨٠ ـ ٨٢ ·

يقول الغبرينى : انه لا يعلم له وقت ولادة ولا وفاة وأرجح
قبل سنة ٦٠٠ هـ وأبى الفضـــل بن محمد بن على بن طاهر بن تميم
الذى عاش ما بين سنتى ٥٤٠ و ٥٩٨ هـ · ص ٨٣ ـ ٨٥

وبعلماء وأدباء القرن السادس تنتهى المرحلة التمهيـــدية
عنوان الدراية » ·

ونجد أنفسنا أمام الدباء وعلماء القرن السابع ببجاية
عددهم ثلاثة ومائة ما بين عالم وأديب ومتصوف

أجل · ان العلم والادب والتصوف كانت القاسم المشـــترك
بينهم جميعا ·

ومع هذا فلا بأس ، بل لا بد من تصنيفهم ناظرين فى هذا
الى اللون الغالب على أحدهم وهو اللون الذى يأتى فيه قبل غيره ،
الاقل جنبا الى جنب مع غيره ·

مشيخة الغبرينى

- ١ -

أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الانصارى البجائى

أديب فقيه أصولى منطقى متصوف ولد ببجاية وقرأ بها ·

كان ابن مقلة زمانه فى حسن الخط وتنوعه ، وكانت فيه دعابة مستحسنة مستظرفة على طريقة أمثاله من فضلاء أهل العلم والتخلق ، وكان اذا أثنى عليه بحسن الخلق يقول : ـ قال النبى صلى الله عليه وسلم : ـ

« أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن » ·

ومن لم يكن عنده أول ما يوضع فى الميزان لم يكن عند غيره ؛ لأن هذا انما يجرى مجرى الأساس ، والله ما بت قط وفى نفسى شر لمسلم ·

يقول الغبرينى : ـ كان القاضى على القضاة بالحقيقة ، لأن مرجع أمرهم انما كان اليه ، وسمعت كثيرا من أهل العلم يثنون عليه ويقولون : انه لم يكن فى وقته بمغر بنا الأوسط مثله · ت سنة ٦٧٥ هـ ص ٨٥ ـ ٩٠ ·

- ٢ -

أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف
٦٠٢ ـ ٦٨٦ هـ

فقيه محدث أديب ، قرأ ببجاية ولقى بها جملة من الفضلاء ·

أسند اليه قضاء الانكحة ببجاية ، وولى القضاء مستقلا بعد ذلك ببسكرة وقسنطينة والجزائر · كان له درس بالغداة ودرس بين الصلاتين ودرس بعد العشاءين ، دأب على هذا مدة طويلة من عمره واقتصر بعده على تدريس درسين : أحدهما فى مسجده بالغداة والآخر بالجامع الاعظم بين

الصلاتين ، وكان مبارك التعليم حسن النقيبة فى التفهيم ، درس عليه العلم خلق كثير وانتفعوا به ٠

يقول الغبرينى : – قرأت عليه رحمه الله وحضرت دروسه وسمعت منه كثيرا ، قرأت عليه الجلاب ، وقرأت بعده الموطأ بالجامع الأعظم ٠
ص ٩١ – ٩٢

– ٣ –

ابو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعى
ت ٦٦٩ هـ

فقيه حافظ مؤرخ من قلعة بنى حماد ، نعلم فى بجايه ، يقول الغبرينى : –

قرأت عليه رحمه الله وسمعت منه واخذت عنه . وهو اول من بدات قراءة الفقه عليه ، وكان يبدأ فى مجلسه بالرقائق . وبعد ذلك بقراءة الفقه والحديث والرواية ٠

كانت له ببجايه وجاهة ونباهة ، وكانت جموع الامراء فى الامور المجتمع لها لا تنعقد الا بوجوده ، وكان لسان الناس فيها ص ٨١ ٠

– ٤ –

أبو عبد الله محمد بن الحسن بن على بن ميمون التميمى القلعى
ت ٦٧٣ هـ

أديب لغوى نحوى مؤرخ محدث مفسر فقيه ابن جنى المغرب وشهرته الأديب ٠

أورد له المصنف جزئين كبيرين من قصيدتين جيدتين وشبهه فى الشعر بأبى تمام ٠ قال : –

هو اكثر الناس شعرا ، وقد شرع فى تدوين شعره عام ٦٣٠ هـ ، وهو فى كل عام يقول منه ما يكتب فى ديولن ، وعاش بعد شروعه فى تدوين

شعره ثلاثا وأربعين سنة ، ولو تم له تدوينه لكان فى مجلدات كثيرة ولكن بأيدى الناس منه كثير ، وتواشيحه حسنة جدا ٠

وعن علمه وكتبه وخلقه يقول الغبرينى : -

لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة أعوام،وقد استمتعت به كثيرا واستفدت منه كثيرا ، قرأت عليه الايضاح من فاتحته الى خاتمته وقرأت عليه النصف من كتاب سيبويه ، وقرأت عليه قانون أبى موسى الجزولى ، وقرأت عليه جملة من الامالى ومن زهر الآداب ومن المقامات ، وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبى ، وحضرت قراءة المفصل ٠

له كتاب سماه [الموضح فى علم النحو] وله [حدق العيون فى تنقيح القانون] وله [نشر الخفى فى مشكلات أبى على]

كان فيه فضل وسخاء ، وكانت يده ويد الطلبة فى كتبه لهذا سواء لكأنه كان يتمثل بقول الأول : -

كتبى لأهل العلم مبذولة
يدى مثل أيديهم فيها
أعارنا أشياخنا كتبهم
وسنة الأشياخ نمضيها

ص ٩٤ - ٩٩

- ٥ -

أبو العباس أحمد بن خالد المالقى

فقيه متصوف متوكل ، وبالرغم من عكوفه عشرين سنة على قراءة ارسطو وتدريسه لطلبته علم المنطق والاشارات والتنبيهات لابن سينا من أولها الى آخرها ومشاركته فى الطب والحكمة والطبيعيات والالهيات ٠

الا انه كان متحملا لأصول الفقه ولأصول الدين على طريقة الائمة المتقدمين اى على طريقة أهل السنة ، وكان لا يرى بطريقة فخر الدين

الرازى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ لا لشىء الا لأنها كانت قائمة على الأبحاث الفلسفية ومعتمدة على اعمال النظر ٠

قرأ عليه الغبرينى جملة من الارشاد ، وجملة من المستصفى ، وبعض معيار العلم فى المنطق ٠ توفى ببجاية فى عشر الستين وستمائة ٠
ص ١٠٠

- ٦ -

أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموى

فقيه حكيم طبيب معالج متخصص فى أمراض النساء والولادة ٠
ورد على بجاية من مرسية فى عشر الستين وستمائة مستوطنا ٠

قرأ عليه الغبرينى قانون أبى موسى الجزولى وأرجوزة ابن سينا قراءة اتقان ، وقد انتقل الى تونس بسبب استدعاء المستنصر الحفصى له ، ونظمه اياه فى سلك أطبائه ، وكانت وفاته بها سنة ٦٧٤ هـ ٠
ص ١٠١ ـ ١٠٢

- ٧ -

أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائرى

أديب نحوى لغوى فقيه منطقى ٠ حضر الغبرينى دروسه التى كان يقرأ فيها الايضاح والجمل والمفصل وقانون أبى موسى الجزولى ومقدمة ابن باب شاذ واصلاح المنطق ، وأشعار الجاهليين وحبيب والمتنبى والمعرى وديوان الحماسة والمقامات والامالى وغير ذلك من الكتب الادبية واللغوية والنحوية ص ١٠٣ ٠

- ٨ -

أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكنانى الشاطبى

أديب نحوى عالم بالقراءات لغوى محدث متصوف له شعر جيد استجاز وأجاز ٠

وهو أندلسى الأصل استوطن بجاية وكان حيا بها سنة ٦٩٩ هـ وربما كانت هذه الترجمة أول ترجمة لحى فى عنوان الدراية

يقول الغبرينى عنه وهو شاهد رؤية : يقرأ كتب العربية فيجيد وأجود ذلك مفصل الزمخشرى قرأه وأحكمه ، وهو كذلك يقرئه ويجيد فيه ، وتقرأ عليه دواوين الاشعار كشعر حبيب والمتنبى والمعرى وأشعار الجامليين وغير ذلك وكل ذلك على اتقان واحكام وجودة ايراد ٠

- ٩ -

أبو العباس احمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفى الشاطبى ت ٦٧٤ هـ

فقيه عالم بالقراءات راوية خبير فى قواعد الاملاء والخط وله فى ذلك تآليف جيد لقى الكثير من المشايخ ببجاية ، وروى عنــه الغبرينى بعض كتب الحديث واستفاد منه فى علم القراءات وفى طريق الضبط ٠

ص ١٠٨ ـ ١١١

- ١٠ -

ابو العباس احمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغمارى ت ٦٨٢ هـ

عالم ذكى فقيه من أهل النظر على طريقة فخر الدين الرازى ، ولاعجب فقد كان مغرما به يثنى عليه كثيرا ولا يرى له نظيرا ٠

حضر الغبرينى دروسه التى كانت تتناول الرقائق والفقــه وأصوله تولى قضاء العلمية مرة وبجاية مرتين ٠

ولما نزل أمير المؤمنين المستنصر على قسنطينة وجه عنـــه واعتنى به وسأله عن بجاية وأهلها ٠

قالوا : فأجاب بما يليق به الجواب ، ولعل ذلك هو السبب فى انتقاله الى تونس وبقائه فيها الى أن مات بها سنة ٦٨٢ هـ :

ص ١١٢ ـ ١١٣

- ١١ -

أبو القاسم بن أبي بكر اليمني بن زيتون
ت ٦٩١ هـ

متكلم منطقى فقيه ، وفقهه جار على قوانين النظر والاجتهاد ·
ولد ومات بتونس ، لكنه كان يتردد على بجاية وقد لقيه الغبرينى فى الموطنين ·

ص ١١٤ ــ ١١٥

- ١٢ -

أبو القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى

فقيه متصوف سنى محدث ولى له اهتمام بالقراءات وعلم العربيــــة وطريق الصالحين · استوطن بجاية مدة من الزمان وأقرأ بها وانتفعبه الناس علما وعملا ، وكان اذا جلس للاقراء يحضر بين يديه الكتب المقروءة عليه . فاذا فتح الطالب الكتاب ، أخـــذ هو الكتاب فى يده ويقرأ الطالب وتقع المعارضة ، وحينئذ يقع الشرح منه لما يقرأه القارىء ، وهذا من تثبتهوتحوطه رضى الله عنه ·

توفى بتونس فى عشر السبعين وستمائة أيام الواثق [٦٧٥ـ٦٧٨هـ]·
ص ١١٦ ــ ١١٨

- ١٣ -

أبو زكرياء يحيى بن زكرياء بن محجوبة القرشى السطيفى
ت ٦٧٧ هـ

عالم فقيه متصوف ولى ذو كرامات ، كان مستجاب الدعوة ، بلغ من فضله وزهده أن عرض عليه الأمير أبو يحيى أن يجعل له مرتبا من أعشار الديوان فى كل شهر فامتنـــع عن ذلك وقال : ان اسمى فى ديوان الوجود المطلق فلا أجعله فى الديوا نالمقيد لأن الاطلاق أوسع من التقييد ، وهو فى ديوان الحق فلا أجعله فى ديوان الخلق ·
له تأليف حسن فى شرح أسماء الله الحسنى ، وله فى التصوف تقاييد

كثيرة ، وله نظم حسن ، وقطع مستحسنة ، كلها فى المعانى الصوفية ٠

قال الغبرينى : كنت فى زمان الشباب نظمت القصيدة الصوفية التى مطلعهـــا :

واحيرة العشاق بالمرقبـاء   حرموا الوصول لطيبة الوسعاء

وهى فى نحو اربعين بيتا فحملتها اليه وأنشدتها بين يديه ففرح بهـا غاية الفرح وجعل يدعو ويقول : بصرك الله لمعانيها وأطلعك على ما فيها ، لأن الحال كان حال شبيبة فاعتقد الشيخ رحمه الله أن ما أتيت به فيها انما هو على سبيل الصناعة لا على سبيل الاطلاع والشهود والله يؤتى الفضل من يشاء ٠

توفى رحمه الله ببجاية فى غرة ذى القعدة عام سبعةوسبعينوستمائة٠
ص ١١٩ ـ ١٢٠

- ١٤ -

أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن عبد المجيد بن عمر بن يحيى الأزدى
٦٠١ ـ ٦٩١ هـ

عالم فقيه ولى ، لكنه كان لا يتسامح فى شىء مما يخالف ظاهرالشريعة ولا يقر شطحات المتصوفة ٠

من أهل رندة واستوطن بجاية الى أن توفى بها ٠
ص ١٢١

- ١٥ -

أبو محمد عبد المجيد بن أبى البركات بن أبى الدنيا الصدفى الطرابلسى

خرج الغبرينى على شرط كتابه وترجـــم له على الرغم من أنه لم ير بجاية ولم تره ، وانما ذكره لأنه من مشيخته ، فقد لقيه بتونس وتبرك به ٠

وهو عالم فى الأصول على طريقة الأقدمين وفى الفقه على طريقـــة

القرويين وهى طريقة تعتمد على الحفظ والنقل دون اعمال النظر والاجتهاد،
ومع هذا فقد كانت له عقيدة فى علم الكلام ، توفى عشر الثمانين وستمائة .
ص ١٢٢

- ١٦ -

أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن عتيق الغسانى الجزائرى

أديب منشىء له شعر رائق وكتب أدبى فائق ، وهو الى ذلك عالم فقيه شغل منصب قاضى بجاية ، وهو أصلا من مدينة الجزائر توفى بعد سنة ٦٧٠ هـ بتونس .

يقول الغبرينى : صحبناه واستفدنا منه واهتدينا بهديه وتعرفنا بركة رأيه رحمه الله وغفر له .

من شعره فى وصف مشاهد القيامة والشفاعة :

ص ١٢٥

لكل نبى دعوة مستجابة
وسيدهم طرا خباها لأمته
الى يوم لا يغنى عن المرء منطق
فصيح ولا يدلى البليغ بحجته
ويوم يفر المرء من ولد له
حبيب ولا يجزى أب بأبوته
ترى الناس فيه بين باك وصارخ
وذاكر ما قد فات من فرط زلته
فكل به حيران يندب شجوه
وسكران لا من خمرة بل بغمرته
وكل نبى يسأل الله نفسه
ويضرب صفحا عن سؤال لأمته
خلا شافع فينا كريم مشفع
به يشمل الله العباد برحمته

- ١٧ -

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبى
ت ٦٩١ هـ

فقيه أصولى لغوى طبيب متبحر ، تخطط بخطة القضاء فى غير ما بلد ثم قضى ببجاية ، وبعدها ولى قضاء حاضرة افريقية ، ووجهه ملك افريقيـة رسولا الى صاحب الديار المصرية فحمد مسعاه وشكر منحاه توفى بتونس سنة ٦٩١ هـ ٠

ص ١٢٦ ـ ١٢٨

- ١٨ -

ابو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الانصارى البلنسى
٦١٩ ـ ٦٩٣

عالم أديب له شعر فى الزهد والتصوف ، من أهل بلنسية ٠

استوطن بجاية وولى قضاءها واقامة الفريضة بجامعهـا الأعظم ثم استدعى لحاضرة افريقية وقدم للقضاء بها أكثر من مرة ٠

يقول الغبرينى : رأيته ببجاية ولقيته بها ، ورأيته أيضا بتونس رؤية جيدة ، واستفدت من أخلاقه ، ومن الاطلاع على أحكامه بحضورى مجلسه٠

ومن عجائب الصدف أنه ولد بجيان يوم عاشوراء سنة ٦٠٩ هـ وهو عام العقاب ، وتوفى بتونس يوم عاشوراء عام ٦٩٣ هـ ٠

من شعره :

أمـا آن للنفس أن تخشعـا
أمـا آن للقـلب أن يقلعـا
أليس الثمـانون قد أقبلت
فلم تبـق فى لذة مطمعـا
تقضى الزمـان ولا مطمـع
لما قد مضى منـه أن يرجعـا

ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

- ١٩ -

أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم السجلماسى

متصوف عابد زاهد ولى ، لقى مشيخة فاضلة بالمغرب والمشرق كان قويا فى علم التوحيد . وكان يرى أن التوصل الى الحقائق ، والترقى الى أعلى المراقى لا يكون الا بالتوحيد · وتلمذة الغبرينى عليه تلمذة فى التصوف · توفى بقلعة بنى حماد ·

ص ١٣٢ ـ ١٣٣

- ٢٠ -

أبو الحسن على بن محمد الزواوى اليتورغى

زاهد ولى ذو كرامات لقيه الغبرينى وهو على أول السن ببلدة بنى يتورغ بموضع سكناه منها ·

ويقول فى نهاية ترجمته له « فهذه المشيخة التى لقيتها وتخيرتها للمشيخة على وانتقيتها نفع الله بها . وهذا أوان ذكر من بقى من العلما الذين اشترطت فى الكتاب ذكرهم رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين » ·

ص ١٣٣ ـ ١٣٤

وقبل أن ننصرف عن مشيخة الغبرينى ننبه الى أن الطابع الغالب عليهم هو العلم أولا والتصوف أو الولاية ثانية ·

أما الأدب فيأتى بعد ·

دليلنا على ذلك أنهم عشرون منهم خمسة فقط يغلب عليهم الأدب وهم الأنصارى والتميمى وابن سعيد والشاطبى والغسانى ·
وبالعد الحسابى ١ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٦ ·

وقد ترك ذلك أثره على الغبرينى ، فهو ـ كمشيخته ـ عالم سلفى يؤمن بالكرامات ولو كانت خرافات ·

هذا أولا ٠

أما ثانيا فهو أديب بارع فى الكتابة ٠

ومن شعره قوله :

لا تنكحن سرك المكنون خاطبـه
واجعل لميته بين الحشا جدثا
ولا تقل : نفثة المصدور راحته
كم نافث روحه من صدره نفثا

علماء وأدباء بجاية من غير مشيخة الغبريني

- ١ -

أبو زكرياء يحيى بن أبي على المشتهر بالزواوى
ت ٦١١ هـ

عالم فقيه محدث مفسر صالح عابد ولى من أهل طريق الحق ، استوطن بجاية بعد عودته من المشرق ومات بها فى ١٤ من رمضان سنة ٦١١ هـ .

وابتداء من هذه الترجمة نجد الغبرينى صاحب رأى ورأى واضح متسع فى أمور التصوف والتذكير والزهد ، لست أدرى لماذا ؟

لعله النضج والانفـــلات من قيود الأدب أو التأدب اللازم فى حضرة المشيخة ٠

يقول عن صاحبه الزواوى ما نصه : « وكان الغالب عليه رضى الله عنه الخوف ٠ ما يمر بمجلسه الا ذكر النار والاغلال والسعير ، وتكاد تفيض قلوب الناس فى مجلسه . هذا هو حاله دائما ، وهــذه الطريق هى أحسن الطرق فى الدعاء الى الله تعالى : ان جبل الله الخلق على أنهم لا ينفعلون غالبا الا بالخوف ، ولأجل هذا كان أكثر الشريعة تخويفا » ٠

لكنه أى الغبرينى أو الزواوى أو هما معا قد وقعا فى التنـــــاقض الصارخ ٠

واقرأ معى هذا الكلام الذى جاء فى أعقاب الكلام السابق بلا فاصل أى فاصل قال :

« وما زال رضى الله عنه مستمرا على هذه الحال الى يوم وفاته يبسط أمل الناس ورجاءهم فى رحمة الله وفى سعة مغفرته ، ومناهم بما عنده من كثرة الثواب ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا الى غير ذلك مما اشتمل عليه مجلسه ٠

وهذا طريق حسن ؛ لأنه لم يبق عند لقاء الله الا الطمع فى رحمتـــه

والرغبة فيما عنده . لأن الخوف فائدته انما هى الحض على العمل . وحين الموت انقطع العمل ، ولم يبق الا قوة الأمل لتلقى الله طيبة نفسه فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه حسبما اقتضاه الحديث » .

***

ويظهـــر أن الشيخين الزواوى والغبرينى كـــانا يريان قبض النفس الانسانية وزجرها بالوعيد . ثم بسطها واغراءها بالوعود .

والله أعلم .

ص ١٣٥ ـ ١٣٩

- ٢ -

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى القلعى

عالم فقيه نحوى مقرىء خطيب راوية من أهل بجاية .

كان اذا أحيا ليلة القدر يرغب الناس فى القيام خلفه لصدق قراءته . بما فيهم والى بجاية عبد الله بن يؤمن ، وكان يصلى وراءه قائما لا يركن الى الجلوس . فاذا قرأ غيره ممن يعينه جلس . وهذا تقدير كبير للمترجم له .

ص ١٤٠

- ٣ -

أبو محمد عطية الله بن منصور الزواوى اليراقنى

عالم فقيه عابد حافظ .

ولا يزال الغبرينى على تسليمه بكرامات الأولياء دون مناقشة .

ص ١٤١

- ٤ -

على بن أبى نصر فتح بن عبد الله
٦٠٦ ـ ٦٥٢

عالم فقيه محدث عابد ورع . من أهل بجاية رحل الى الأندلس والى الشرق ثم استقر ببجاية .

ص ١٤٢ ـ ١٤٤

- ٥ -

ابو الحسن على بن احمد بن الحسن بن ابراهيم الحرالى التجيبى

شرق هذا الشيخ وغرب وعاش فى بجاية مدة ، كان معظما لأهل البيت معترفا بالاسترقاق لهم ، كما كان زاهدا زهدا حقيقيا بالظاهر والباطن ·

أما علمه فحدث عنه ولا حرج ، ولندع الغبرينى يتكلم قال :

وممن لقى بالمشرق الامام ابو عبد الله محمد القرطبى امام الحرم الشريف قال رحمه الله : « تعلمنا عليه الفاتحة فى نحو من ستة أشهر ، وكان يلقى فى التفسير قوانين تتنزل فى علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام ، الى أن من الله ببركات ومواهب لا تحصى مما لا عين رأته ولا اذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر » ·

ويسترد الغبرينى الكلام من الامام ليقول :

جمع رحمه الله فنون العلم بجملتها واستولى على كليتها :

اما علم الأصول ، فأصول الدين وأصول الفقه هو أعلم الناس بها وقد صنف فيها ·

وأما معقولات الحكماء ، فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه [المعقولات الأول] ·

وأما علم الطبيعيات والالهيات فكان أعلم الناس بها ·
أخبرنى شيخنا أبو محمد بن عبد الحق رحمه الله تعالى : قال لى :

كنا نقرأ عليه [النجاة] لابن سينا ، فكان ينقض عراه نقضا وذلك بعد أن يوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه » ·

وأما علم التعاليم فكان أعلم الناس بها ، وأما علم الفقه فكان أعلم الناس به منقوله ومعقوله ·

وأما علم التفسير ، فكان يورد الآى ويناسقها نسقا بديعا ويتكلم فيها

بما لم يسبق اليه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير وتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا ٠

وعلم الحديث كان له فيه تقدم وعلو سند ٠
وعلم العربية لغة ونحوا وأدبا كان متقدما فيه ٠

له التآليف الحسنة ، وله الشعر الفائق الرائق غزلا وتصوفا ، وله فى علم الفرائض ما لم يسبق اليه ٠

وأما علم التصوف فهو فيه الامام ٠

وبالجملة فحيث تكلم فى علم يعتقد الناظر فيه أنه لا يعرف غيره ٠

وما من علم الا وله فيـــه تصنيف وتأليف وهو من أحسن التصانيف وأجل التآليف ٠

ولعمرى ان كتابه فى علم الفرائض المسمى (الوافى) ما رأيت مثله فى ذلك الفن . وكذلك كل ما طالعته من كلامه فى أصول الفقه و ص[illegible] الدين وعلم المنطق وعلم العربية وعلم التصوف وغير ذلك من سائر ما تحدث فيه رضى الله عنه ٠

***

والغبرينى ـ كما نرى ـ مفتون بصاحبه ، فلا عجب أن كال له بالكيل الوافى ، وذهب فيه الى ما لا يعقل قال :

ولقد زهد رضى الله عنه حتى فى الكتب ؛ فانه لم يكن عنده منها شىء ، وكان لا يفتقر فى مواعيده الى مطالعة شىء ؛ لاحاطته وتحصيله ، وجميـــع ما صنفه من الكتب ما كان يراجع فيه كتابا ولا يطالع فيه سوى مجرد فكره وتسديد رأيه ٠

توفى رحمه الله بحماه من بلاد الشام سنة ٦٣٧ هـ ٠

ص ١٤٥ ـ ١٥٧

- ٦ -

بو عبد الله محمد بن على الطائى الحاتمى محيى الدين بن عربى المرسى

عالم فقيه متصوف لكن تصوفه من النوع الفلسفى · أصله من مرسية دخل بجاية سنة ٥٩٧ . وأقام بها مدة ·

له من التاليف ما هو أكثر من الكثير ، وكلها فى علم التصوف ، يقول الغبرينى : وفيها ما فيها ·

ان قيض الله من يسامح ويتأول الخير سهل المرام ·

وان كان ممن ينظر بحسب الظاهر ولا يتسامح فى نظر ناظر . فالأمر صعب ، والملتقى وعر ·

ولقد صدقت نبوءة الغبرينى ، فقد نقد عليه أهل مصر ما صدر عنه وحبسوه تمهيدا لقتله ، كما قتل الحلاج وأشباهه ·

لكن الشيخ أبا الحسن على بن ابى نصر فتح بن عبد الله البجائى ما زال ساعيا فى امره . ومظهرا من وجوه التأويل فى شأنه ما اقتضى الاعراض عن زلته والمسامحة فى هفوته ·

ولما غدا ابن عربى حرا ذهب الى البجائى وقال له :
كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت ؟!!

فأجابه البجائى : يا سيدى تلك شطحات فى محل سكر ولا عتب على سكران ·

توفى رحمه الله فى نحو الأربعين وستمائة ·

ص ١٥٨ ـ ١٦٠

- ٧ -

أبو الفضل قاسم بن محمد القرشى القرطبى
ت ٦٦٢ هـ

عالم فقيه صالح زاهد مستجاب الدعوة ذو كرامات كثيرة خرج من قرطبة الى بجاية وسنه عشر سنوات ·

ص ١٦١ ـ ١٦٤

- ٨ -

أبو زكرياء المرجانى الموصلى

نسبة الى الموصل بالعراق ، ولكنه عاش فى بجاية فترة . صالح ورع كاشف فقيه .

ص ١٦٥

- ٩ -

تقى الدين الموصلى

ولى أمى لا يقرأ ولا يكتب ، رحالة لم يبق عليه من الأقاليم اقليم الا سلكه وكان يحدث عن غرائب وعجائب . وصل الى بجاية فى مدة الشيخ ابى الحسن الحرالى وكان يقول عنه : انه من أساطين الحكمة وأنه كقس ابن ساعدة وزيد بن عمر بن نفيل هداه الله الى الحق بموجدة نفسه من غير اكتساب ، وتوصل الى ما يتوصل اليه أهل البراهين من خالص الصواب .

نسبته الى الموصل كسابقه ولم يظل ببجاية بل تركها الى المغرب الاقصى .

ص ١٦٦ - ١٦٧

- ١٠ -

ابو العباس الجدلى الشريف

اصله من اصبهان ، ورد بجاية وأقام بها مدة ثم انصرف الى المغرب وهو فقيه محدث جدلى .

ص ١٦٨

- ١١ -

أبو النجم هلال بن يونس الغبريني

فقيه عابد ولى بجائى .

ص ١٦٩

- ١٢ -

أبو عبد الله محمد بن على القصرى

من اهل بجاية . كان عالما بالفقه واصول الفقه وأصول الدين ، بارعا فى علم العربية . متقـــدما فى علم التصوف ، سيدا فى طريق الانقطـــاع والعبادة . متواضعا موصوفا بالتقوى على ما عليه السلف الصالح رضى الله عنهم .

ص ١٧٠

- ١٣ -

أبو العباس احمد بن عثمان بن عبد المتوسى الملياني
ت ٦٤٤ هـ

سكن بجاية واقر بها واسمع . له علم بالعربية والفقه وأصول الدين وحظ من التصوف والعبادة .

ص ١٧١ ـ ١٧٢

- ١٤ -

أبو عبد الله بن شعيب

عالم فقيه أصولى ولى متصرف تصوفا سنيا ، دخل بجاية فى مـــدة اجتيازه الى المشرق .

ونجد الغبرينى وهو يترجم له يقص قصته مع البجائى الذى أضافه . وفحواها : أنه لم يؤد الا الصلوات المفروضة وسننها المؤكدة ، ولما استقل ذلك منه ألهم الله شعيبا شعور المضيف نحوه ، فأقام عنده ثلاثين يوما لايأكل ولا يشرب ، كرامة طبعا ، ولما هم بالانصراف قال لمضيفه :

ما أقمت عندك هذه المدة الا لئلا تزدرى بأولياء الله اذا رأيتهم يؤدون الفرائض ويقتصرون عليها . وأى فضل اعظم من آداء الفرائض اذا فعلها الفاعل على حقيقتها وارتكب جميل طريقتها ؟!!

وهنا ينبرى الغبرينى مدافعا عن شعيب ومبديا رأيه فى سلوكه بقوله:

وهذا الرجل [شعيب] انما كان من أهل العرفان ، وانما كانت عبادته فى فكرته ولكن العامة ما يرون الفضل الا لمن يكثر الركوع والسجود والصيام، وان كان جاهلا ، وذلك لعدم تمييزهم وقلة علمهم .

ثم يقص قصة مماثلة ويعلق عليها تعليقا مماثلا فيقول :

ان العامة لا يدركون الا الأحوال الظاهرة ولا علم لهم بالأسرار .
« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .
أعاد الله علينا بركات أولياء الله بفضله .

***

ومن هذين التعليقين للغبرينى نفهم أنه كان يرى أن للأولياء عمقهم الخاص بهم . وعالمهم المغلق عليهم ، ولا حق لنا فى محاسبتهم بما نحاسب به أنفسنا ولا فى قياسهم علينا .

أما أنا فأرى أن الانحياز بهم الى عالم الأسرار التى لايصح لنا ولوجها انحياز خاطىء وفى غير محله ؛ فالكل فى شرع الاله سواء والله أعلم .

ص ١٧٣ ـ ١٧٦

- ١٥ -

أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن فتوح النفرى
ت ٦٤٢ هـ

أديب عالم بالنحو واللغة والفقـــه والمنطق له شعر بارع وأدب غض يانع ومما ألفه : تقييد على كتاب المفصل ، واختصار [حلية الأوليـاء] لأبى نعيم .

أصله من شاطبة ثم جاء الى بجاية ، وقبره بحومة رابطـــة المتمنى خارجها .

ص ١٧٦ ـ ١٧٧

- ١٦ -

أبو عبد الله الشريف

عالم عامل فقيه متكلم متعبد زاهد بجائى .

ص ١٧٧ ـ ١٧٨

- ١٧ -

أبو الحسن علي الشهير بابن الزيات

عالم فقيه متعبد أندلسى استوطن بجاية ثم استوطن تونس وبها توفى .
كانت تقرأ عليه الكتب المذهبية مثل :
التهذيب : للبراذعى المتوفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى .
التلقين : للقاضى عبد الوهاب المالكى .
الجلاب : لأبى القاسم عبيد الله بن الجلاب والاسم الحقيقى للكتاب التفريع .
الرسالة : لأبى زيد القيروانى المتوفى سنة ٤٠١ هـ .

ص ١٧٨

- ١٨ -

أبو تمام الواعظ الوهرانى

عالم عابد ولى . سكن بجاية واشتغل فيها بعلم التذكير .

ص ١٧٩

- ١٩ -

أبو على عبد المحسن الوجهانى الصواف

عالم عابد فقيه بجائى ارتحـــل الى المشرق للحج فظهر أمره بمصر ظهورا كليا .

ص ١٨٠

- ٢٠ -

أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم الانصارى [٥٦٠ ـ ٦٥٧ هـ]

عرف بابن السراج الاشبيلى ، وهو عالم فقيه راوية متعبـد من أهل اشبيلية ، استوطن بجاية ومات بها .

ص ١٨١

- ٢١ -

ابو اسحق ابراهيم بن ميمون بن بهلول الزواوى
ت ٦٨٦ هـ

أديب فقيه ولى . له نظم حسن وكلام فى النثر مستحسن رحـــل الى المشرق وتوفى ببجاية .

ص ١٨٢

- ٢٢ -

أبو تميم ميمون بن جبارة بن خلفون البردوى
ت ٥٨٤ هـ

فقيه رحل الى المشرق وعاد الى مراكش فعينه خليفتها قاضيا لبلنسية سنة ٥٦٨ هـ ثم صرف عن ذلك منقولا الى قضاء بجاية ، واستقدم الى مراكش من بجاية ليتولى مرة ثانيـــة قضاء بلنسية فتوفى فى طريقه اليها بتلمسان سنة ٥٨٤ هـ .

ولست أرى له ما يجعل الغبريني يكسر به شرط كتابه ؛ فهو من اهل القرن السادس الهجرى لا السابع .

ص ١٨٣

- ٢٣ -

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهرى المشتهر بالأصولى

عالم فقيه أصولى متكلم موسيقى . من أهل بجاية . وقد ولى قضاءها ثلاث مرات .

وهو صاحب الفضل فى انقاذ أبى الوليد بن رشد من فتك المنصور الموحدى به ، فانه لما كتب فى مؤلفه [الحيوان] :

[ورأيت الزرافة عند ملك البربر] .

وهم المنصور بقتله قال : انما كتب : [ورأيت الزرافة عند ملك البرين] وانما جاء فيه زيادة ونقص .

ودفاع آخر دافع به عن صديقه وصفيه ابن رشد ، وهو أنه كان قد جرى بمجلس أمير المؤمنين منع العمل بالشهادة على الخط فاستند الفهري على ذلك وحاج أمير المؤمنين قائلا :

منعتم الشهادة على الخط في الدرهم والدينار ، وتجحدونها في قتل المسلم ؟!!

والدفاعان قويان وهما يدلان على حسن التصرف ورباطة الجأش .
ص ١٨٤

- ٢٤ -

أبو العباس محسن بن أبي بكر بن شعبان

عالم فقيه خطاط من أهل بجاية .

ص ١٨٧

- ٢٥ -

أبو محمد عبد الكريم بن عبد الملك بن عبد الله بن طيب الأزدي

عرف بابن يبكى القلعي ، وهو عالم فقيه من قلعة بني حماد ، يقول الغبريني عنه : صاحب الرابطة المعروفة برابطة ابن يبكى بداخل باب ميسون من أعلى سند بجاية وبها قبره رحمه الله .

ص ١٨٨

- ٢٦ -

أبو عبد الله محمد بن صمغان القلعي

فقيه قاض محدث من قلعة بني حماد، لكنه رحل الى بجاية واستوطنها .
ص ١٨٩

- ٢٧ -

أبو عبد الله بن أمة الله

عالم فقيه من أهل العلم بأصول الدين،كان له من المعرفة به والاشتهار فيه ما أربى على المتقدمين ٠

ص ١٩٠

- ٢٨ -

أبو جعفر بن أمية

أديب فقيه ذو خط جميل ، له شعر كثير فى النسيب والحكمة والتصوف ومن شعره فى التحقيق هذان البيتان :

ظهرت فلم تعرف لشدة غفلة
عرضت فأنكرت النفوس ظهورها
ولقد أطالوا الخبط فيها عشوة
وهى التى أشـــهدتهم نورها

ص ١٩٠ ـ ١٩١

- ٢٩ -

أبو عبد الله محمد بن على بن حماد بن عيسى بن أبى بكر الصنهاجي القلعى

عالم فقيه من أهل قلعة بنى حماد قرأ ببلده وقرأ ببجاية ولقى بها جلة منهم الشيخ أبو مدين شعيب رضى الله عنه ٠

ص ١٩٢

- ٣٠ -

أبو محمد عبد الحق الأزدى الاشبيلى
ت ٦٢٨ هـ

محدث أصولى نحوى مؤرخ أديب ٠ من مؤلفاته :

١ ـ الاعلام بفوائد الأحكام ٠
٢ ـ شرح مقصورة ابن دريد ٠
٣ ـ النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية ٠

ص ١٩٣

- ٣١ -

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد السلام · عرف بابن الطير

فقيه أصولى · ولى قضاء بجاية محمولا عليه وهو لا يريد ·

ص ١٩٤

- ٣٢ -

أبو زيد عبد الرحمن بن على بن محمد القرشى الصقلى المعروف بابن الحجرى

فقيه نحوى لغوى ، أصله من صقلية كما تدل نسبته . لكن أخذ العلم عنه ببجاية خلق كثير ·

ص ١٩٥

- ٣٣ -

أبو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الاغماتى

لغوى نحوى فقيه منطقى مؤرخ من أهل اغمات بالمغرب الأقصى استوطن بجاية وولى القضاء ببعض جهاتها وكان مشتغـــلا بالتدريس بها وقرأ عليه الشيخ الأجل أبو اسحاق بن عمران أيام ولايته السلطانية ببجاية ·

ص ١٩٦

- ٣٤ -

أبو عثمان سعيد بن عبد الله المعروف بالجمل

فقيه متصرف ، جلس للاقراء ببجـــاية . وكان نافذ النظر فى أصول الدين وهو أعظم علومه ·

·ص ١٩٨

- ٣٥ -

أبو على عمر بن مالك المرساوى

كان أعلم الناس بعلم الكلام وبأصول الدين ، يقول الغبرينى : « وكل من كان له مشاركة فى أصول الدين ببلدنا فما كان أخـــذه الا عن طريق أبى على المرساوى » ·

·ص ١٩٨

- ٣٦ -

أبو الحسن على بن عمران بن موسى الملياني · عرف بابن أساطير ·

يقول الغبريني عنه : كان له علم بالفقه وأصول الدين والتصوف وعلوم الحكمة قرأ عليه بعض خواص أصحابه كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا وكان من عدول بجاية وخيارها ·

ص ١٩٩

- ٣٧ -

أبو على منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالى
ت ٧٣١ هـ

له علم بالفقه وأصول الفقه وأصول الدين . وله مشاركة فى علم المنطق وعلم العربية ·

ص ٢٠٠

- ٣٨ -

أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن الخطيب

فقيه نحوى منطقى أصولى حكيم متصوف أديب ·
أورد له الغبريني شعرا حسنا فى التصوف ·

ص ٢٠١ ـ ٢٠٢

- ٣٩ -

أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر

له تحصيل فى الفقه جيـــد ، وله علم بأصول الدين وأصول الفقه ، ومعرفة بالحكمة وبراعة فى علم المنطق ·

قرأ ببجاية ثم رحل الى المشرق وتوفى بتونس حوالى سنة ٦٨٠ هـ
ص ٢٠٤ ـ ٢٠٨

- ٤٠ -

أبو زيد عبد الرحمن بن على بن أبى دلال

أديب شاعر خطيب له مشاركة فى الفنون وفى عقلى العلوم ونقليها وجزه أحسن توجيز ، ومن نظمه فى بعض أصحابه قصيدته السينية اللزومية وهى قصيدة سهلة لعدم تكلفها وقلة تعسفها ·

ص ٢٠٥

- ٤١ -

أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن سبعين المرسى

له مشاركة فى معقول العلوم ومنقولها ، وله فصاحة وبلاغة ·

كتبه كثيرة فى أيدى الناس ، لكن له فيها ألغازا واشارات وتسميات مخصوصات هى نوع من الرموز ، وفى المقابل له تسميات ظاهرة هى كالأسامى المعهودة ، وله شعر فى التحقيق فى مراقى الطريق ·

وكتابته مستحسنة فى طريق الأدباء · توفى حوالى ٦٦٩ هـ ·

ص ٢٠٩

- ٤٢ -

أبو الحسن على النميرى الششترى
ت ٦٦٨ هـ

أديب صوفى حكيم فقيه ولى · شعره فى غاية الانطباع والملاحة وتواشيحه وأزجاله فى غاية الحسن ·

أندلسى الأصل · عاش فى بجاية ومات بمصر ، وقبره فى ثغر دمياط على البحر الأبيض المتوسط ·

ص ٢١٠ ـ ٢١٢

- ٤٣ -

أبو العباس أحمد بن أبى القاسم عبد الرحمن بن عثمان التميمى الخطيب

غلب عليه الفقه ، وهو أول بيت بنى الخطيب ببجاية ، ولى قضاءها

من مراكش ، وقد استمرت مدته وطالت ولايته ، وكان أكثر الناس حظوة عند بنى عبد المؤمن ٠

ص ٢١٣

- ٤٤ -

ابو محمد عبد الله بن احمد بن أبى القاسم عبد الرحمن بن عثمان التميمى ت ٧٢٠ هـ

أحد قضاة العدل ، وولاة الدين والفضل ، ولى قضاء سبتة بالعدوة وبلنسية بالاندلس ومات بمدينة تونس ، فلعله مر ببجاية وهو فى طريقه الى افريقية والا لما ترجم له الغبرينى هنا ٠

ص ٢١٤

- ٤٥ -

ابو محمد عبد الله بن حجاج بن يوسف الجزائرى

من الفقهاء الذين تولوا القضاء ببجاية ٠

ص ٢١٥

- ٤٦ -

أبو محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الحسنى

فقيه ، وهو الذى ترافع فى حضرة أمير المؤمنين بمراكش عن الفقيه أبى زكرياء الزواوى لما خاض فى امر ابن حزم حتى قال الخليفة : يترك هذا الرجل [الزواوى] على حسن اختياره ٠ أى على حسن اختياره من يدافع عنه ٠

ص ٢١٦

- ٤٧ -

ابو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأريسى

فقيه مفت يجيد الخط المشرقى ٠

ص ٢١٧

- ٤٨ -

أبو على عمر بن عزون السلمى

رحل الى بلاد المشرق فقرأ ومهر ، وعاد الى بجاية فظهر واشتهر وحظى بها فكان المشاور والمفتى ٠

ص ٢١٨

- ٤٩ -

أبو الحسن على بن عبد الله الأنصارى البونى

ناب عن القضاة فى بجاية نيابة مطلقة تنزلت منزلة الأصالة ٠ وما ذلك الا لنهوضه فى الأحكام ومعرفته بوجوه الحلال والحرام ٠

ص ٢١٨

- ٥٠ -

أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسين الخشنى البجائى

عالم ٠ فقيه ٠ مشاور ٠

ص ٢١٩

- ٥١ -

أبو زكرياء يحيى بن على بن حسن بن حبوس المهدانى

كان أحد الفقهاء المشاورين ، والجلة المفتين ببجاية ٠

ص ٢٢٠

- ٥٢ -

أبو اسحاق بن العرافة

ولى صلاة الفريضة والخطابة بالجامع الأعظم ببجاية ، وكان له به مجلس علم حافل يدرس فيه علوم الرواية وعلوم الدراية ٠

ص ٢٢٢

- ٥٣ -

أبو سعيد بن تونارت الدكالى

لم تكن له مشاركة فيما سوى الفقه وقد درسه ببجاية ٠

ص ٢٢٢

- ٥٤ -

أبو زيد عبد الرحيم بن عمر اليزناتى

رحل الى المشرق فلقى الأفاضل وجد واجتهد ، ولما وصل الى بجاية اشتهر بها وعكف على التدريس فيها ، وكان محصلا لمذهب مالك ، ولأصول الفقه على طريقة الأقدمين ، ومن أهل الاجتهاد ٠

ص ٢٢٣

- ٥٥ -

أبو زكرياء اللفقتى الأندلسى

فقيه أندلسى رحل الى بجاية واستوطنها وأقرأ بها . وأسمع ، وكان جلوسه بالجامع الأعظم ، ولما رحل الى حاضرة تونس استدعاه ملكها وسأله عن حاله وعن طلبته ٠

ص ٢٢٤

- ٥٦ -

أبو سليمان داود بن مطهر الوجهانى

رحل الى المشرق فحج وقرأ ودرس ورأس واجتهد ، كان له علم بالفقه وبأصوله وأصول الدين ومشاركة فى العربية ٠

ص ٢٢٥

- ٥٧ -

أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن السطاح الجزائرى
ت ٦٢٩ هـ

نحو لغوى فقيه ٠ أصله من الجزائر ٠ رحل الى أشبيلية وقرأ بها ٠ وهو أول من أدخل كتاب [الأنوار فى الجمع بين المنتقى والاستذكار] الى العدوة ، نسخة بخط يده ٠

استوطن بجاية وأقرأ بها وناب عن قضاتها فى الأنكحة ٠

ص ٢٢٥

- ٥٨ -

أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوى المنجلاتى
ت ٦٩٠ هـ

متعبد مبارك له معرفة بالفقه وأصوله ومشاركة فى علم العقائد ٠

قرأ ببجاية ورحل الى حاضرة افريقية ثم رجع الى بجاية وأقرأ بها وعظم أمره واشتهر حتى صار مجلسه بها من المجالس المعتبرة ٠

توفى بتيكلات وهى مكان معروف ببلاد القبائل ودفن حيث مات ٠

ص ٢٢٦

- ٥٩ -

أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبى بكر المنصور القلعى

فقيه من قلعة بنى حماد ، كان له علم بالحساب سبق فيه الأوائل والأواخر لو لقيه الحصار وابن وهيب ما أمكنهم الا الاستماع منه والاخذ عنه ، وكانت له طريق فى الفرائض ملخصة فى نهاية القرب ، ولم يكن ببجاية فى وقته أحد يريد قراءة هذا العلم الا قرأه عليه ، وكان يقصد من البلاد لقراءة هذا العلم عليه ٠

توفى ببجاية فى عشر الستين وستمائة ٠

ص ٢٢٧

- ٦٠ -

ابو على عمر بن أحمد العمرى البجائى

فقيه أصولى من أهل بجاية ، رحل الى المشرق فلقى الأفاضل وحج ، ولما رجع الى بجاية كان أحد عدولها والمتصدرين للتدريس بها ٠

ص ٢٢٨

- ٦١ -

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية الكلبى
ت ٦٣٣ هـ

أديب نحوى مؤرخ محدث فقيه ، استوطن بجاية وروى بها وأسمع كان من أحفظ أهل زمانه للغة حتى صار حوشيها عنده مستعملا غالبا عليه، ولا يرضى الغبرينى عن ذلك ، وهو يفسره بحب الظهور والاشتهار ٠ رحل الى المشرق فى عهد الأيوبيين فرفعوا شأنه وقربوا مكـــانه ، وحضروا له مجلسا أقروا له فيه بالتقدم ٠

كتب الى الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب قصيدة رائعة منها :

ما لى أســـائل بــرق بارق عنـكـم
من بعـــد ما بعـــدت ديارى عنـكـم
وبمنحنى الأضـــلاع بل وادى الغضـــا
من مهجـــتى يا راحـــلين نزلتـــم
فمحلكم قلبى وأنتـــم بالحشـــا
لا بالعقيـــق ولا برامـــة أنتـــم

ولما رد عليه ممدوحه بنثر وشعر يثنى عليه وعلى شعره فيهما كتب له قصيدة أخرى أروع وأوقع ٠

ص ٢٢٨ ـ ٢٣٨

- ٦٢ -

أبو الربيع سليمان الأندلسى المعروف بكثير

شاعر ناقد فقيه له علم بالحديث ومعرفة برجاله ، حافظ لأسانيـــده محصل لمعانيه ، من أهل الضبط والحفظ ٠ قال الغبرينى عنه :

وأما الأدب فشأوه فيه لا يدرك ، سبق فيه أهل الزمان وأربى ، ولمثله فى الفصاحة والبلاغة تحل الحبى ٠ وقال أبو الحسن الحرالى :

بلغ كثير فى رتبة البلدان أن يكون كأوائل العرب يحتج بشعره فى ذلك

لما كان انتهى اليه من الفصاحة والبلاغة حتى صارت له طبيعة ، وكان سريع البديهة ؛ يكتب عنه ولا يقف ، ويورد أحسن ايراد ·

له قصيدة فى نحو خمسمائة بيت يصف فيها حاله ويعاتب وقته هذا مطلعها :

الحمــــد لله ليس لى بخت ‏ ‏ ‏ ‏ ولا ثيــاب يضمها تخت

وكان لسان نقد على المؤلفين والمصنفين والمتكلمين ·

ومن جملة نقوده قوله عن كتاب الاحياء لأبى حامد الغزالى :

ومتى ماتت العلوم حتى تحيا ؟!! علوم الدين ما زالت حية ولا تزال ·
٢٣٩ ــ ٢٤١

- ٦٣ -

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الوغليسى

اديب فقيه عالم بالكتابتين الأدبية والشرعية ، كان المعتمد عليــه فى وقته فى المخاطبات السلطانية انشاء وجوابا ، كما كان عليه اعتماد القضاة فى التسجيلات ، واليه كان يهرع اهل البلد فيما يحتاجون اليه من الوثائق المحكمات والأمور المستغربات ·

ولى الخطابة بجامع القصبة المحروسة فى بجاية ، وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط ·

ص ٢٤١

- ٦٤ -

ابو بكر محمد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سليمان بن محمد الزهرى ويعرف بابن محرز البلنسى
ت ٦٥٥ هـ

أديب لغوى مؤرخ فقيه محدث راوية ، لقى كثيرا من الفضــــلاء فى

الأندلس والمشرق والمغرب ، وأجاز له كثير منهم ، وقد ارتحل الى بجاية بعد الأربعين وستمائة واستوطنها الى أن مات بها ·

رأى له الغبريني نظما ونثرا لا بأس بهما ·

ص ٢٤١ _ ٢٤٤

- ٦٥ -

أبو عثمان سعيد بن على بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الانصارى البلنسى ت ٦٥٤ هـ

فقيه أندلسى من بلنسية · استوطن بجاية وأقرأ بها وأسمع أخذ عنه واستفيد منه · له علم بالقراءات وحظ من العربية · محكم الرواية متقن الدراية ·

ص ٢٤٥

- ٦٦ -

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمرى الاشبيلى المتوفى سنة ٦٥٩ هـ

فقيه لغوى نحوى مؤرخ راوية حافظ للحديث عارف برجاله ، وهو فى معرفة القراءات امام ، ولى صلاة الفريضة والخطبة بالجامع الأعظم ببجاية ولما اشتهر حاله وعلمه ، ونقل الناقلون ذكاءه وفهمه ، نمى خبره الى المستنصر بالله بالحاضرة الافريقية ، فاستدعاه وقربه ، وقد ظل هناك حتى مات ·

قال الغبرينى عنه : كان يكتب جيدا وينظم نظما حسنا ، ثم أورد له أبياتا جيدة على قافية الغين ·

ص ٢٤٦ _ ٢٥٩

- ٦٧ -

أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومى ت ٦٥٨ هـ

هذا الشيخ أبو المطرف قد تحمس الغبرينى له تحمسا عظيما ، وكتب

ترجمته وهو فى قمة الانفعال به ، ولعله قد أحس بذلك وظن أننا أو غيرنا يمكن أن نتهمه بالاسراف أو بالخروج عن الموضوعية فى الكتابة العلمية ·

فدافع عن نفسه بأمرين :

أولهما : ايراد نصين نثريين من انشائه واعتذر عن ايراد ثالث بخشية الاطالة ·

وثانيهما : أنه فى نهاية الترجمة له قد وثقها باسنـــادها الى شيوخ ثلاثة وهو لا يفعل ذلك مع كل أحد ·

وهذه مقتطفات مما جاء فى هذه الترجمة قال :

الشيخ الفقيه المجيد المجتهد العالم الجليل الفاضل المتقن المتفنن ·

اعلم العلماء وتاج الأدباء ابن عميرة المخزومى من أهل جزيرة شقر سكن بلنسية مدة وكتب عن ولاتها ، فاق الناس بلاغة وأربى على من قبله وتهادته الدول ، وولى القضاء بأريولة وشاطبة من الأندلس وسـلا ومكناسة من العدوة ، وقسنطينة وقابس من بلاد افريقية وغيرها ·

استوطن بجاية مدة طويلة وأقرأ بها ودرس ، له علم بالفقه ، وأصوله وحديث حسن فى معقوله ومنقوله ، وله أدب هو فيه فريد دهره ، وسـابق أهل عصره . والناس يتداولون كتبه ويستحسنونه ويؤثرونه على كتب غيره، وبالواجب ــ علم الله ــ أن يكون كذلك لسلوكه حسن منهجه الذى هو فيـه أول سالك ·

والذى أوجب تقدم الفقيه أبى المطرف فى كتابته انما هو أن الرجل من أهل بلنسية ومن أهـل العلم فيها . فكتابته علمية أدبية ، وكتـابة غيره مقتصرة على نوع الأدب ، وهذا المعنى هو الذى تميز به عمن عـداه وسبق من سواه ·

وكان الطلبة مدة كونه ببجاية يقرأون عليه تنقيحات السهروردى وهى من مغلقات أصول الفقه عند من لم يمارس علم الأصول ، ولا يتعرض لاقرائها الا من له ذهن ثاقب ·

رحل الى حاضرة افريقية واتصل بالخليفة المستنصر بالله فاستقضاه قابس ثم استدعاه وجعله من خواص الحاضرين بمجلس حضرته ومن فقهاء دولته . وقد توفى بتونس .

ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣

- ٦٨ -

أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم بن عبد الغنى القرشى
ت ٦٨٠ هـ

فقيه جمع بين الرواية والدراية . له علم بالعربية والأدب ، وله نظم ونثر وكتابة مستحسنة ، ولا عجب ؛ فقد كان فصيح القلم واللسان . دخل بجاية وبقى بها مدة ثم انتقل الى تونس ومنها انتقل الى ثغر ميورقة التى توفى بها .

ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

- ٦٩ -

أبو على الحسن بن موسى بن معمر

أديب لسن فصيح فقيه مليح الحكاية بارع الخط حسن النظم والنثر .

كان صاحب العلامة المستنصرية ، وكان له عند المستنصر حظ ؛ فقد كان يستطرف حديثه ويعجب به ، وكان يوم دخوله عليه وجلوسه عنده يطول الأمر على الواقفين بين يديه فلا يكون عليهم أشد من ذلك اليوم .

ولى قضاء بجاية فحسنت فيه سيرته واستحسنت طريقته ، وكان محبا للناس مشكورا عندهم .

لما غضب عليه المستنصر احتال حتى أوصله هذين البيتين له :

وا حسرتى فى مقـــام بين أظهركـــم
قوم رجاؤهم باليــــأس مفضــــوح
صـــدوا وســدوا عن المضطر بابهــم
وما دروا أن باب الله مفتـــــوح

قالوا : فذرفت عينا أمير المؤمنين رضى الله عنه و ظهر له وجه البر والرضى وغفر له ٠

يقول الغبرينى ناقدا : والبيت الثانى مليح القصد ، وأما الأول فظاهر فيه وجه النقد ٠

ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

- ٧٠ -

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أحمد بن أبى بكر القضاعى الشهير بابن الأبار

المتوفى سنة ٦٥٨ هـ

أديب لغوى نحوى مؤرخ فقيه محدث نشأ ببلنسية وتخرج على أيدى علمائها ، وصحب أبا الربيع بن سالم بضعـــا وعشرين سنة ، وهو الذى ندبه الى وضع كتاب التكملة لصلة أبى القاسم بن بشكوال ٠

كتب اليه كثير من علماء المسلمين فى المشرق والمغرب ، ولا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة فى الاسلام الا وله فيه رواية اما بعموم واما بخصوص٠

رحل الى العدوة واستوطن بجاية ودرس بها وأقرأ وروى وأسمـــع وصنف وألف ، وهو ممن لا ينكر فضله ولا يجهل نبله ، له تآليف حسنـــة ونزعات فى علم الأدب بارعة ٠

استدعاه أمير المؤمنين المستنصر الى حضرته فلما مثل بين يديه أنشده:

بشراى باشرت الهـــدى والنـــورا
فى قصـــدى المستنصر المنصـــورا
واذا أميـــر المـــؤمنين لقيتـــه
لـــم ألـــق الا نصـــرة وســـرورا

فحظى عنده وبلغ عنده مأموله وقصده ٠

يقول الغبرينى : لو لم يكن له من الشعر الا القصيدة التى رفعها لمقام

الأمير أبى زكرياء رحمه الله يستنجـــده ويستصرخه لنصرة الأندلس والتى مطلعهــا :

أدرك بخيلك خيــل الله أندلســـا
ان السبيــل الى منجاتهــا درســا

لكان فيها كفاية ٠

ولو لم يكن له الا الكتاب المسمى [اللجين فى مراثى الحسين] لكفاه في ارتفاع درجته وسمو رتبته ، فكيف لا ، وله تصانيف وجملة تآليف من شعره رحمه الله ورضى عنه :

ســاق من روض الأمــانى أرجـــه
ولأمــر مــا شجــالى مدرجـــه
خيلت لى أنهــا تعــدنى
وخيــالات الفتى تستــدرجه
فلذا اكـــذب شيء فجـرها
ولقــد غر الحجى منبلجـــه
يا شقيق النفس أوصيـــك
وان شق فى الاخلاص ما تنتهجه
لا تبت فى كمـــد من كبـــد
رب ضيق عاد رحبــا مخرجه
وبلطف الله أصـــبح واثقـــا
كل كـــرب فعليـــه فرجـــه

توفى رحمه الله بتونس فى العشرين من محرم عام ٦٥٨ هـ ٠

ص ٢٥٧ _ ٢٦١

- ٧١ -

ابو محمد عبد الله بن علوان

كاتب أديب منشىء فقيه ، جمع بين الكتابتين الأدبية والشرعية ، وكان شيخ كتاب الكتابة الشرعية فى وقته ، له نظم فى الفرائض سلك فيه طريقة الحجازيين والنجديين ، وهو النائب فى صلاة الفريضة بالجامع الأعظم ، وقد أورد له الغبرينى شعرا جزلا فخما سما لفظا ومعنى ٠

ص ٢٦٢ _ ٢٦٤

- ٧٢ -

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله المعافرى

فقيه مقرىء نحوى ، قرأ على أبيه بالقلعة الحمادية ، ثم ارتحل الى بجاية ـجل ں للتدريس بجامعها الأعظم ، وكل من قرأ عليه وصفه باتقـان الرواية وجودة الدراية ٠

كان لا يتسامح فى اجازة بوجه ، ولا يمكن منها الا بعد التحصيـل الطويل ، ومن ظفر من الطلبة باجازته فقد ظفر بالغاية القصوى ، ووصـل الى المرتبة العليا ٠

ص ٢٦٥

***

- ٧٣ -

أبو الحسن على بن مؤمن بن محمد بن على الحضرمى
عرف بابن عصفور

نحوى لغوى مؤرخ مفسر منطقى شهير الذكر رفيع القدر ، من أهـل اشبيلية قرأ بها على أبى على الشلوبين ، فحصل له ما لم يحصل لغيره ٠

يقول الغبرينى : وكل من قرأ على أبى على الشلوبين ببلده نجب ٠ وأجلهم عندى رجلان : أبو الحسن هذا ، والأستاذ أبو الحسن بن الربيـع وأجل الأستاذين أبو الحسن بن عصفور ، وما أعتقد فى الأسانيد من المتأخرين أجل منه ، فقد جمع رحمـه الله بين الحفظ والاتقان والتصور وفصـاحة اللسان ٠

تآليفه فى العربية من أحسن التآليف ٠

له [المقرب] وهو كتاب بارع ، وله على الايضاح ، وله شرح أبيات الايضاح لم يسبقه أحد بمثله ، وكلامه فى جميع تآليفه سهل منسبك ، والذى قيد عنه أصحابه أكثر من تآليفه ٠

شرح جزءا من كتاب الله العزيز ، وسلك فيه مسلكا لم يسبق اليه ٠

وقال : لو ساعدنى الوقت وأمدنى الله بالمعونة منه ، وأكمل هذا الشرح على هذا المنزع لكان ذخيرة العالم ٠

يقول الغبرينى : هو ممن له القدرة على هذا ، وهو أولى الناس بشرح كتاب الله تعالى ٠

ارتحل الى العدوة ، واستوطن بجاية ، وكان بها أستاذا للأمير أبى يحيى برد الله ضريحه ، وارتحل الى حضرة تونس فحظى بها عند المستنصر بالله ، وكان أحد خواص مجلسه ٠

ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

***

- ٧٤ -

أبو محمد عبد الحق بن يوسف بن حمامة الغبرينى

نحوى لغوى فقيه ، كتابته تدل على بلاغته وبراعته وطلاقة قلمـــه وفصاحتـــه ، ولى القضاء ببعض أكوار بجاية ، وكان معروفا بالعفـــاف وبالاقتصار على الكفاف ٠

ص ٢٦٨

- ٧٥ -

أبو الحكم مروان بن عمار بن يحيى

أديب لغوى نحوى فقيه من أهل بجاية ، دخل الأندلس وولى قضاء المرية ٠

ص ٢٦٩

- ٧٦ -

أبو محمد عبد اللهبن عبد الرحمن بن عبد الله بن موسى بن سليمان بن على ابن عبد الملك بن يحيى بن عبد الملك بن الحسن بن محمد بن عميرة بن طريف ابن اشكورته الأزدى

أديب خطيب فقيه محدث راوية من أهل مرسية ومن بيت عريق فى العلم؛ فأبوه وجده مذكوران فى التكملة ٠

سكن بجاية وروى عنه بها ، وولى صلاة الفريضة بجامعها الأعظم .
كان لا يعد خطبه بل يرتجلها ، وقد اجاز له كثيرون .

قدم الى حاضرة افريقية بعد الأربعين وستمائة ، وبعد ذلك استأذن فى الحج فأذن له ، وحج سنة ٦٥٦ هـ ثم عاد ، ولم يزل مأخوذا عنه الى أن توفى بتونس ظهر يوم الأحد السادس والعشرين لجمادى الأخيرة عام أحد وستين وستمائة هجرية .

ص ٢٧٠ ـ ٢٧١

- ٧٧ -

ابو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمى القرطبى
ت ٦٣٦ هـ

أديب كاتب شاعر فقيه شرح مقامات الحريرى وكتب على خطبتها نحوا من خمسة عشر كراسا بالقالب الكبير .

كان ببجاية فى مدة السيد بن عمران من بنى عبد المؤمن .

وقد خمس [المنفرجة] لابن النحوى على الوجه الآتى :

لا بد لضيق من فرج ـ والصبر مطية كل شج ـ وبدعوة أحمد فابتهج

اشتـــدى أزمة تنفرجى   قد آذن ليلـــك بالبلج
يا نفسى رويدك لا حـــرج   وثقى بالله عسى فـــرج
وكـــذا ما ضـــاق له فـــرج
وظلام الليل له سرج   حتى يغشـــاه أبو السرج

وبعد أن أورد الغبرينى التخميس كاملا علق عليه بقوله :

وهذا التخميس قد ظهر من أمره ومن العناية بمنشئـــه ما دل على خلوص نيته وصلاح طويته وأنا أرويه مع وصيته عن الشيخين :

أبى عبد الله بن رحيمة البانى ، وأبى العباس بن خضر الصدفى رحمهما الله ، ثم ذكر الوصية .

ص ٢٧١ ـ ٢٧٩

- ٧٨ -

أبو على حسن بن الفكون القسنطينى

الأديب البارع والفقيه الكاتب أبو على حسن بن الفكون من الأدباء الذين تستطرف أخبارهم وتروق أشعارهم غزير النظم والنثر . وكأنهما أنوار الزهر ٠

رحل الى مراكش وامتدح خليفة بنى عبد المؤمن ، ومن وحى هذه الرحلة قصيدته اليائية المشهورة ٠

كان الأدب له من باب الزينة والكمال ، فلم يكن يحترف به لاقامة أود أو اصلاح حال ٠

أصله من قسنطينة من ذوى بيوتاتها ومن كريم أرومتها ٠
توشيحه جيدة وشعره ممتاز ٠

وقد أورد له الغبرينى ثلاثة نماذج من ثلاث قصائد ، ونجتزىء هنا بهذه الأبيات من النموذج الثانى وهى فى وصف قصر الربيع الموحدى ببجاية لما كان فى زيارته ضيفا على صاحبه مع جماعة قال :

عشونا الى نار الربيع وانما
عشونا الى نار الندى والمحلق
ركبنا بواديه جياد زوارق
نزلنا اليها عن ضوامر سبق
وخضنا حشاه والأصيل كأنه
بصفحته تبر جرى فوق زئبق
ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦

- ٧٩ -

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الادريسى المعروف بالجزائرى

شيخ كتبة الديوان ببجاية ، له شعر كثير فى كل فن . وشعره حسن سهل يكثر فيه التجنيس الذى يأتى عفوا من غير تكلف ٠

ان أطال أعرب ، وان اقتصد أعجب ، مليح التواشيح ، أورد له الغبرينى خمسين بيتا موزعة على الابتهال الى الله تعالى وعلى المدح والغزل قال :

يا من على جـــوده المعهود أتكل
ويا ملاذى اذا ضاقت بى الحيــل
غرقت فى بحر آثامى فخذ بيدى
وامنن بعفو فانى خائف وجــل

ص ٢٨٧ ـ ٢٩٤

- ٨٠ -

أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام الدلسى

غلب عليه الأدب شعرا ونثرا ، فقد أجادهما وبرع فيهما ، كما برع فى الطب والفقه والتاريخ ، « وما كان يجب أن ينسب الا أنه من الفقهاء لا من الأدباء » •

أصله من تدلس وهى دلس التى تبعد عن مدينة الجزائر بنيف ومائة كيلو متر •

ولما ولى القضاء ببعض كور بجاية سكنها وصار من أدبائها وعلمائها • وقد أورد الغبرينى كثيرا من شعره •

ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠

- ٨١ -

أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى الاندلسى

لغوى نحوى مؤرخ فقيه ، تعلم بالأندلس على مشايخ كثيرين منهـــم أبو على الشلوبين ، ثم ارتحل الى العدوة فسكن بجاية وأقرأ بها ، ولما حج لم يستفد من المشرق علما لأنه ما حج الا بعد الأستاذية •

وبعد الحج اتخذ تونس وطنا له عاش فيه ومات به •

من كتبه :

١ ـ على الجمل •
٢ ـ شرح الفصيح لثعلب •
٣ ـ الاعلام بحدود قواعد الكلام •

ص ٣٠٠ ـ ٣٠١

- ٨٢ -

أبو العباس أحمد بن محمد القرشى الغرناطى

فقيه حافظ مؤرخ مدرس مفسر محدث راوية يقول الغبرينى :

« سمعت عنه أنه يحفظ تاريخ الطبرى ، وذكر لى بعض أصحابنا أنه يحفظ تقسير الثعلبى ، واذا حفظ هذين الكتابين استتبع حفظهما كثيرا من غيرهما .

سمعه وهو يدرس فى الجامع الاعظم ببجاية فدل كلامه على حفظه واتقانه .

له تآليف وتصانيف منها على كتاب الله تعالى طالعت بعضها » .

وكان له اعتناء بأهل زمانه . شرع فى تأليف كتاب يذكر فيه المصنفين من أهل عصره فى المغرب والمشرق ، وراسل من رأى أن يترجم لهم ليخبروه بما صنفوه وهذا هو السبب فى أنه كان أعلم الناس بالكتب المصنفة وأحفظهم لأسمائها .

ص ٣٠١ ـ ٣٠٢

- ٨٣ -

أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الجنان

كاتب بارع وشاعر رائع وفقيه جليل وخطيب كبير من أهل الرواية والدراية وجودة الخط وحسن الضبط ، نثره ونظمه كله حسن ، وأى نوع انتقلت اليه من فرعى أدبه قلت : انه أحسن . نظمه ، غزير وأدبه كثير .

من داليته المشهورة هذه الأبيات :

يا حادى الركب قف بالله يا حادى
وارحم صبابة ذى نأى وابعاد
ما ينبغى عنك الا آن تصيخ له
سمعا ليسأل عمن حل بالوادى

فهل لديك عن الأحبــاب من خبر
وهل نزلت بذاك الربـع والنـادى ؟
بالله ان كنت قــد خيمت عنــدهـم
بالمنحنى بين أنجــاد وأجــواد
هات الحديث عن المغنى وساكنـه
وارفع الى سنة العليــاء اسنادى
بين الجوانح نار للجــوى وقدت
فان قدرت فأخمــد بعض اخمـاد
هيهات تستطيع اخمادا وذكراهـم
يزيد نار ضــلوعى نار ايقــاد
ص ٣٠٢ ــ ٣٠٦

***

بهذا ينتهى الكتاب تقريبا ٠

وانما قلنا تقريبا لأن الكتاب لم ينته تماما ٠

ذلك أن الغبرينى بعد أن أعقب علماء القرن السادس الهجرى وعلى وجه التحديد نهاية هذا القرن ٠

أقول : بعد أن أعقب أبا مدين ومن معــه بمشيخته هو أى بأساتذته الذين قرأ عليهم ، وثلث بعلماء القرن السابع ٠

رأى أن يختم الكتاب ببرنامج مشيخته ، وهو يقصد ببرنامج مشيخته توزيع العلوم التى درسها على شيوخه ٠

وبلغة العصر الحديث جدول حصصه ، أو جدول محاضراته على حسب المراحل التعليمية التى تدرج فيها ٠

وقد قسم هذه العلوم الى قسمين :

علوم دراية

وعلوم رواية

ورأى أن علوم الدراية هى : علم الفقه وعلم الأصلين : أصول الدين وأصول الفقه وعلم العربية وعلم المنطق وعلم التصوف ٠

أما علوم الرواية فالمقصود المهم منها انما هو علوم تفسير القرآن الكريم !! وعلوم الحديث

ويعود فيذكر علم الفقه وعلم العربية وعلوم التصوف والتذكير وهذا يعنى أن لهذه العلوم المكررة أو المشتركة بين الدراية والرواية جانبين : جانبا عقليا وجانبا نقليا ٠

ومهما يكن فهو قد قرن كل علم من علوم الدراية أو من علوم الرواية بالشيوخ الذين درسوا له هذا العلم أو ذاك ، ناظرا فى ذلك الى تخصص كل شيخ أو كل طائفة من الشيوخ ، اذ كان قد اشترك فى تخريجه فيه اكثر من شيخ ٠

***

ومما يلفت النظر أنه يؤكد جانب السند فى علوم الرواية وينتهى بسندها الى مصادرها الأولى كمالك والشافعى والبخارى ومسلم والليث ابن سعد والطرشوشى والجزولى وسحنون ، وسيبويه وأبى على الفارسى والزمخشرى وابن قتيبة وأبى تمام والحريرى ٠٠٠٠٠ وهنا نتساءل :

ألم يكن وصول كتب العلماء السابقين الى الغبرينى كافيا لنا ومغنيا له عن هذا السند الدقيق والوثيق ، والذى هو فى نفس الوقت شاق ومجهد:!

طبعا كان ذلك كافيا وشافيا ٠

لكنها الدقة العلمية من الغبرينى ، أو لكنه الالتفات الشديد الى جوانبه العلمية :

يبرزها ويفرزها ويصنفها ليوزعها على أصحابها الذين أعطوها له أو أخذها هو منهم ٠

ربما ليقول لنا :

اننى ان كنت أصبت فيما نصبت واجتهدت ٠

وان كنت أخطأت ، فالعهدة على الكتاب الذى عنه نقلت أو على الشيخ الذى منه أخذت ٠

ربما

وقد تكون الأمانة العلمية والاعتراف بالفضـــل لذويه هو الذى جعله يجهد نفسه ويجهدنا معه · غفر الله له ورحمه ·

***

يقيت كلمة عن أسلوب عنوان الدراية :

وواضح أنه أسلوب سهل وساطع ·

فالغبرينى لا يتقعر ولا يتوعر ، وانما يطلق نفسه على سجيتهـــا تسقط الكلمات بخفة على أفكارها ، أو تجذب الافكار كسوتها اللغوية اليها جذبا رقيقا لطيفا ممتعا ·

انه يكاد يكون مثالا لما نسميه اليوم بالأسلوب العلمى المتأدب وهذا الأسلوب يستخدم فى مجالين اثنين هما :

الدراسات الانسانية ·

وتيسير العلم ·

وفى الحق أن عنوان الدراية موزع على هاتين الناحيتين :
فالكلام عن العلماء دراسات انسانية

والكلام عن علمهم تيسير لهذا العلم بخلخلته من مصطلحاته العلمية ، وجعله مفهوما للقارىء غير المتخصص ·

***

أما منهجـــه :

فهو المنهج القائم على وحدة الترجمة ·
لا أبواب ولا فصول ·
وانما تراجم متتابعة وأكاد أقول متشابهة ·

يبدأ الترجمة باجمال مداركها من فقه أو لغة أو نحو أو تفسير أو حديث أو أصول أو تصوف أو ولاية أو خطابة أو قضاء أو أدب .

يعطى لمترجمه من ذلك ما نبغ فيه واشتهر بين الناس به ثم كرامات أو تأليف أو مشيخة وسند .

واذا غلبت على من يكتب عنه ناحية انشائية مثل لها تمثيلا يتردد بين الطول والقصر .

وهو فى الأعم الاغلب يصحبه من ولادته الى وفاته ، ولربما أرخ لهذه الوفاة وحدد مكانا .

وبعـــد :

فقد أنهى الغبرينى كتابه فى صفحة ٣٢٣ داعيا للمؤلف والكـــاتب والقارىء والراوى بالنفع ، وبجعل مقصدهم من أفضل المقاصـــد وأحسن المساعى .

وأطمح ـ وقد عايشت الكتاب وعرضته وحللته ـ أن أكون داخلا فى هذا الدعاء من بابين :

باب القراءة .

وباب الرواية .

فأنا بهذه الدراسة لكتابه قد قرأته ورويته .

وأشهد : لقد كان قصدى فيما قمت به نحو كتابه من أفضل المقاصد وأحسن المساعى .

ان أريد الا الاصلاح ما استطعت .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ؟

قسنطينة فى
١٩٧٨/٥/١٢

- ٤ -

أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى

هذا الكتاب من ذخائر المغرب العربى ، ونحن اذ نعرض له بالتحليل والدراسة فى سلسلة التراث الأدبى للمغرب العربى ، وانما نفعل ذلك على سبيل التوسع فى معنى الأدب ؛ فهو دراسة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية ودينية ٠

واذا كان الأدب مرآة تعكس انفعالات الأديب واهتماماته الانسانيـة مهما تنوعت اتجاهاتها واختلفت محاورها ، فانه كذلك وبنفس المقدار يعكس نبض الأمة ويرصد مشاغلها حكاما ورعية ٠

وليس ردة من الأدب ولا خروجا على رسالته ما نراه أحيانا عند ذوى الميول الاصلاحية من توسع فى مفهومه ٠

واذا كنا ــ بسبب موضوعاتهم ــ لا ننحاز بكتاباتهم الى النثر الأدبى الخالص ٠

واذا كانا ايضا ــ بسبب تلوين هذه الكتابات بالصبغ الفنى الجمالى ــ لا ننحاز بها الى النثر العلمى الخالص ٠

فان هذه الكتابات تقع وقوعا طبيعيا ــ واكاد اقول : آليا ــ فى المنطقة الوسطى بين النثرين العلمى والأدبى ، وهى ما تسميه الدراسات النقـدية الحديثة بالأسلوب العلمى المتأدب ٠

ومن هذه الكتابات ، أو من هذا الأسلوب ٠
« اسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى » ٠

فهو كتاب علم اذا نظرنا الى مضمونه ، وكتـاب أدب اذا نظرنا الى صياغته ، هو مزيج من الفكر والشعور ، وقد كتبه صاحبه بحماس المصلح الاجتماعى ، وغيرة رجل الدين الملتزم ، وقد جاءت افكاره لهـذا مزجاه بالعاطفة ، عاطفة الحب للسلطان والنصح له ، وعاطفة الحب للدين والحرص عليه ٠٠

وستعلم بيئة الكتاب وتاريخ تأليفه وظروف هذا التأليف ، ونحن نعرف بمؤلفه المغيلي ، وبمن ألفه له وهو :

الأسقيا محمد الأول ملك سنغاي وصاحب الأسئلة(*)

هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الملقب بأسكيا ، سراكولي الأصل ، هاجر أجداده في نهاية القرن الحادي عشر من جنوبي موريتانيا الحالية — وقد كانت جزءا من مملكة غانا — الى بلاد النيجر ، وامتزجوا بالمصاهرة والنسب مع قبيلة سنغاي ·

ولما كبرت تلك القبيلة وأحست بقوتها بعد دخول السراكوليين فيها ، وامتزاجهم بها ، بدأت تتوسع وتتحول الى امارة ، لكنها كانت امارة صغيرة تابعة لمملكة مالي ·

ولما بدأت عوامل الضعف تنخر في جسم هذه المملكة ، وعلى وجه التحديد في سنة ١٣٣٦ م استقلت امارة سنغاي عنها بقيادة آل سني ·

وفي عهد الأمير سني علي بارو [١٤٦٥ — ١٤٩٢ م] كان الأسقيا محمد أحد الضباط البارزين في جيشه ، والرجل المسئول عن سياسة التوسع ، لكن الملك سني علي كان حاكما مفسدا ، وربما كافرا ملحدا ، كما سنرى في الأسئلة والأجوبة ·

ولهذا رأينا الأسقيا محمدا يقوم بثورته عليه ويسقطه عن عرشه سنة ١٤٩٢ م ، وقد انتهى بهذا حكم آل سني الذي استمر (١٥٧) سبعا وخمسين ومائة سنة ·

ولما كان الأسقيا محمد قد جاء الى الحكم عن طريق ثورة ؛ فانه رأى لزاما عليه أن يوطد ملكه ، وأن يثبت وجوده على عرش سنغاي ·

ومن هنا كانت اصلاحاته الكثيرة ومسايرته للفقهاء ولرجال الدين ، ولعل أصله السوداني كان أحد عوامل نجاحه ·

---

* قيل في تبرير لقب [اسقيا] أو [اسكيا] : ان بنات سني علي لما قام محمد الاول بالثورة على ابيهن وبلغهن ذلك بلن : [اسكيا ؟] اي أهو نفسه ؟ فالتصق تساؤلهن بمحمد الاول عن ذلك الوقت ·

أما آل سنى فهم آما زيغ بربر ، جاءت أصولهم من منطقــــة طرابلس الغرب مرورا بفزان الى السودان ٠

ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى كان الأسقيا محمد قد تحول بمملكته من الشكل القبلى الى الشكل الوطنى الذى يسمح لجميع القبائل بالمشاركة فى الشئون العامة للبلاد ٠

وفى سنة ١٤٩٦ م سافر للحج ٠

وقد أنفق فى هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية ، فانه اشترى فى مكة أرضا ودارا يأوى اليها الحجيج السودانى ، وقد ظلت تعرف بـ[رواق التكرور] ولكثرة نفقاته قوبل باحترام كبير من جانب شرفاء مكة ، وقلده كبيرهم مولاى العبـــاس شارات السلطنة ، ولقب [أمير السودان الغربى وخليفة السودان كله] ٠

وقد سعد الأسقيا بذلك سعادة عظمى ، ولا عجب : فهو قد كسب المكانة السياسية على أساس شرعى فى نظر رعاياه وغيرهم ٠

واثر رجوعه من الحج بروح معنوية عالية ، انهمك فى الفتوح الدينية، فأخضع بلاد الموسى ، وبسط نفوذه على معظم أقاليم السودان الغربى ٠

وقد بلغت سنغاى على عهده من التوسع ما لم تبلغه فى تاريخهـــا الطويل كله ، بل ما لم تبلغه مملكة غيرها فى طول السودان وعرضه ٠

***

وفى آخر أيامه خلعه أكبر أبنائه وولى عهده المسمى موسى ، وكان ذلك فى سنة ١٥٢٨ م ٠

***

وعلى الرغم من أن أبناءه وأحفاده الذين حكموا بعده لم يكونوا مثله فى القوة ولا فى التمسك بأهداب العدل ، الا أن مملكة سنغاى ظلت بقوة دفعة عظيمة ومسيطرة على جميع ما كان بيده ، حتى أنهى جيش المنصور الذهبى السعدى عهد آل اسقيا بانتصاره على جيش اسحق الثـــانى آخر

السلاطين الأسقيين سنة ١٥٩١ فى معركة [توندينى] الى الشمال الغربى من [غاو] العاصمة ٠

وبهذا يكون حكم آل أسقيا لسنغاى قد استمر مدة ثمان وتسعين سنة من ١٤٩٣ الى ١٥٩١ م(١) ٠

المغيلى مؤلف الأجوبة

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى ، والمغيلى نسبة الى قبيلة مغيله التى كانت تقيم بالقرب من تلمسان ٠

واذا كان تاريخ ولادته مجهولا ، فان تاريخ وفاته هو سنة ٩٠٩ هـ ٠

كان من أبرز المثقفين وقادة الفكر فى عصره ، وقد انتقل بعد اتمام دراسته من الشمال الى الجنوب فسكن الصحراء ، ولا يعرف لذلك سبب مؤكد ، ولو أنه يمكن القول بأن حملته على اليهود الذين كانوا مسيطرين فى أهم مدن الشمال على مصادر التجارة والمال ، هى التى ضيقت عليه فى عيشه واضطرته الى الهجرة ويسهل تصور ذلك اذا علمنا أن اليهود كانوا قد اشتروا ذمم بعض المسئولين الرسميين وجعلوهم صنائع لهم وسيوفا يسلطونها على خصومهم ٠

ولم يكن حظه فى الجنوب بأحسن منه فى الشمال ، فقد وجد اليهود يشاركون بنشاط كبير فى حركة القوافل التجارية مع السودان ، ويتصرفون بحرية أكثر من الحرية التى يتمتعون بها فى الشمال،أى أن المغيلى كان فى انتقاله من الشمال الى الجنوب بسبب اليهود كالمستجير من الرمضاء بالنار ٠

لكنه هذه المرة كان ايجابيا بدعوته الملحة الى محاربتهم ، وبهدمه مع بعض أصحابه عددا من بيعهم بمدينة [توات] وما جاورها ٠

ولما لم يجد للنيل اليهود آخرا انتقل الى [كانو] حيث اتصل بأميرها وكتب له رسالة أرشده فيها الى التزام الجادة الاسلامية فى حكمه ٠

---

(١) انظر « مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين » تأليف رابح بونار طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧١ م ٠

وبعد أن درس بمساجد [كانو] مدة ، انتقل الى [غاو] واتصل بالأمير اسقيا محمد الكبير ، فأكرمه هذا الأخير ، وكتب عدة أسئلة ، رجاه الاجابة عنها طبقا لمبادىء الاسلام ٠

***

وينسب المؤرخون للمغيلى أربعة عشر كتابا معظمها فى الفقه، وبعضها فى اللغة ٠

هذا عدا رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح ٠

ومن رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح أجوبته على أسئلة الاسقيا ٠

***

وقد كان المغيلى بعلمه الواسع وبعمله الشجاع فى حث الملوك والرؤساء على سلوك سبيل الحق ، صاحب شخصية قوية استطاع بهـــا التأثير على الناس فى السودان حتى صار اسمه مقرونا لديهم بلقب [الامام] ٠

ولم يكن هذا حاله فى السودان وحده ، بل كان هذا حاله فى المغرب قبل مجيئه الى السودان ٠

لقد كان المغيلى من الصراحة والجرأة بحيث شهر بانحراف المسئولين فى المغرب عن جادة الصواب ، وأنذرهم عاقبة أمرهم وتنبأ بهجوم البرتغال والأسبان على بلادهم ٠ وقد صدقت نبوءته ٠

اهميـــة الكتـــاب

تتمثل أهمية هذا الكتاب فى أنه يلقى الضوء على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية فى مملكة سنغاى على عهد الأسقيا محمد الأول الذى يبدو صريحا وهو يسأل المغيلى عن عدد من الأمور التى كـانت تشغل باله ، ويطلب منه الاجابة عنها على حسب تعاليم الاسلام ، أما المغيلى فقد رأيناه من خلاله رجل دين واصلاح ٠

ونحن نذكر به وبآرائه التقدمية الجريئة ابن خلدون وابن تيمية وعز الدين

ابن عبد السلام وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومحمد اقبـــال وعبد الحميد بن باديس والشيخ حسن البنا والشهيد سيد قطب ·

كما رأيناه عالما واسع الاطلاع طويل الباع في كل ما يتصل بشئون الدين والدنيا وصاحب قلم مطواع يعالج به كل ما يخطر له على بال ، ولو خرج في ذلك عن حدود السؤال ·

واذا كان الكتاب بشقيه [الأسئلة والأجوبة] يهم المؤرخين لأنه الوثيقة الوحيدة التي جاءتنا عن عهد الاسيقيين في سنغاى ، فانه كذلك يهم رجال العلم والأدب والسياسة والحرب والاقتصاد والاجتماع ، وهو الى ذلك يعطى صورة من التبادل الثقافي والفكري بين المغاربة وجيرانهم السودانيين ·

وأول خطوة على هذا الطريق كانت تلك الفرقة الصغيرة التي دفع بها عقبة بن نافع في اتجاه فزان فوصلت الى تشاد ·

وقد بلغ ازدهار الثقافة الاسلامية بالسودان الغربي مرحلة الأوج في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وفي هذين القرنين بالذات ، وعلى وجه التحديد ما بين سنة ١٥٠٢ . ١٥٠٣ وضع هذا الكتاب بالاشتراك بين المغيلي رجل الدين والمصلح الاجتماعي بل عالم الاجتماع ، وبين الأسقيا محمد الأول رئيس دولة سنغاى وهو ملك كان يهتم كل الاهتمام باصلاح حال رعيته وتقويم سلوكها بما يتلاءم وقوانين الاسلام ·

وقد صدر الكتاب بتحقيق الأستاذ الفاضل عبد القـــادر زبايديه عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر المحمية سنة ١٩٧٤ م ·

عرض وتحليل الكتاب :

جاء هذا الكتاب فى سبع مسائل ، فى كل مسألة أكثر من سؤال ، اجل فليست مسائله بسيطة بل مركبة ، بمعنى أن كل مسألة مكونة من خيوط كثيرة تكون جديلة كبيرة تسمى مسألة ·

وها هى ذى فى دراسة موجزة مركزة ، يغنى فيها الشاهد عن الغائب، والمنظور عن المستور ، وعلى من يريد الاستيعاب أن يقرأ الكتاب كله ·

المسألة الأولى

تبدأ المسألة الأولى بل يبدأ الكتاب بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله هكذا :

من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى الى الامير الحاج أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الملقب بأسكيا ·

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد · أعاننا الله واياك على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فانك سألتنى عن مسائل : **أولها** : ـ أنك قلت : مذ من الله علينا بالاسلام ، أصابتنا مصيبة فى هذا البلد ؛ لعدم الامانة فيمن ينتسب الى العلم من قراء بلادنا ، ومن صفتهم أنهم لايفقهون من العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم ، على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار ، ومنهم قضاة ومفسرون يتكلمون فى دين الله ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم ورثة الانبياء ، وأنه يجب علينا الاقتداء بهم ·

وأنا أطلب من الله ثم منك أن تفتى لى بما علمك فى هؤلاء القراء :

هل يجوز لى أن نعمل بقولهم فى دين الله ، ويخلصنى تقليدهم عند الله ؟ او لا يحل لى ذلك ، ويجب على البحث عمن نوليه الحكم ونقلده فى أمور الدين ؟

وبين لنا صفة من يصلح لذلك شرعا .

تم اطلب منك ايضا ان تشفى غليلى بترتيب الاجوبة على هذه الاسئلة وبزيادة ما تيسر لكم من النصيحة أيضا . ص ٢١ - ٢٢

انتهى السؤال الاول من المسألة الاولى . ونبادر فنقف منه عند نقطتين هامتين للايضاح والشرح .

النقطة الاولى أن الاسقيا محمدا أشار بل صرح بأن قــراء بلده وفقهاءها من اصل عربى ، وانظر قوله : - [لا يفقهون من العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم] . وهى اشارة تاريخية ذكية وصائبة ؛ فقد أثبتت ابحاث العلماء انه قد حدثت هجرات لجماعات من شبه الجزيرة العربية - وبخاصة المنطقة الجنوبية - الى أفريقية ولو أن معظم هؤلاء المهاجـــرين كانوا يستقرون فى الشرق من أفريقيا ، ولا يصل الى السودان الغربى منهم الا القليل ، وقد عوض ذلك أن العلاقات بين المغرب والسودان كانت وثيقة وقوية ؛ فقد حصلت هجرات عديدة من بلاد المغرب الى السودان وبالعكس . وها هو ذا المغيلى فى السودان مفتيا للملكي (كانو) و (غاو) ومستشارا خاصا لهما .

النقطة الثانية

ما يبدو من تناقض بين وصف الاسقيا لرجال الدين فى دولته بأنهــم لا يفقهون من العربية الا قليلا على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلمــاء ، ولا موضع التصحيف والتحريف ، ثم يعطف بقوله : - « ومع ذلك لهم كتب يدرسونها ، وحكايات وأخبار ، ومنهم قضاة ومفسرون » .

ولا مخرج لنا من هذا التناقض الا بجعل كلمة (لهم كتب) بمعنى عندهم كتب ، فليس بلازم ، بل ولا يعقل وهذا حالهم أن تكون من تآليفهم .

والآن : مع جواب المغيلى عن سؤال الاسقيا ، قال بادئا بنصحه : -

اعلم أعاننا الله واياك أن الملك كله لله ، وما النصر الا من عند الله فكن لله عبدا بطاعته يكن لك ربا بحفظه واعانته ، انما أنت مملوك لا تملك شيئا، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم ، لا لتكون سيدهم ومولاهم ، وأنت فى جميع أمرك راع لا مالك ، وكل راع مسئول عن

رعيته ، فانظر لنفسك قبل الفوت فانه لابد لك من الموت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امير عشرة الا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » . وقال : —

اللهم من ولى من أمر امتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من امر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به » .

اكتب كلام المغيلى وانا مبهور . وكم أود ان يقرأه علماؤنا الأفاضل فى شتى المجالات . وخاصة مجالات الوعظ والارشاد ، وعلى وجه أخص من يخطب منهم حتى خطبة الجمعة — وهى خطبة شرعية لها شروط وأركان — فى حضرة الملوك والرؤساء او من هم دون الملوك والرؤساء .

وترن فى أعماقى كلمات المغيلى لملك دمنغاى وخليفة السودان كله : فهو بادىء ذى بدء يصادره ملكا ، ولا يخلى بينه وبين وظيفته الرسمية فى الدولة قبل أن يعظه ويذكره ، خشية أن يركبه الغرور ، ويبعده الكبر عن الناس .

واعيدوا معى قراءة هذه الرقع الارجوانية : « انما انت مملوك لا تملك شيئا ، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده ، لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم أنت فى جميع أمرك راع لا مالك . أنظر لنفسك قبل الفوت : فانه لا بد من الموت » .

يا أبنائى الوعاظ ، بل يا آبائى الوعاظ ، احفظوا هذا الكلام ووازنوا بينه وبين ما تقولونه فى مثل هذا المقام ، ثم انظروا فى مرايا ضمائركم . ومن فضلكم لا تحكموا على أنفسكم بالاعدام .

والوضعية السليمة للملك أو الرئيس أن يناط به اصلاح دين الناس ودنياهم لا أن يكون سيدهم ومولاهم ، أى أن منصبه تكليف لا تشريف .

ويا من تؤمنون بجان جاك روسو ونظرية العقد الاجتماعى .
ثم يا من تنكرون أن الاسلام دين ودولة .

تعالوا فانظروا ماذا قال المغيلى منذ ست وسبعين وأربعمائة سنة

***

ولا يقف المغيلى عندما طلب منه الاجابة عنه ، فها هو ذا يستطرد الى موضوع جديد بقوله : ـ وكيف يعمل مع أقاربه ؟

قضية عثمان اذن :

وهى قضية مؤكدة ؛ لأنها متجددة وقائمة فى كل زمان ومكان ، وهـ شىء طبيعى : فالحاكم ـ أى حاكم ـ ليس نباتا شيطانيا ، وانما هو ابن وطنه وأمنه ـ وقبل ذلك ابن بيته وأسرته ٠ فماذا يعمـــل مع أقــاربه ؟ جل ماذا يعمل ؟

يجيب المغيلى عن هذا السؤال بقوله : ـ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من وال الا وله بطانتـــان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه الا خبالا ، فمن وقى شرهما فقد وقى ٠

اذا علمت ذلك أيها الامير فعليك بأمرين :

الاول : أن تبعد عنك أهل الشر ، وأن تقرب منك أهل الخير لأن من الغالب على الانسان التأنس بقرينه ، والميل الى طبعه وتزيينه ، فمن قربته من نفسك فقد مكنته من أذنك ، ومن مكنته من أذنك فقـد مكنته من قلبك ، لأن الاذن زمام القلب ، ولذلك قال مالك بن أنس : ـ

لا تمكن زائغ القلب من أذنك ، وقال بعض الحكماء : ـ

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فـكل قـرين بالمقـــارن يقتـــدى

وفى ذلك قلت : ـ

اذا قرب السلطـــان أشرار قومه ... وأعرض عن أخيارهم فهو طـالح
وان قرب السلطان أخيـــار قومه ... وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرىء ينبـــك عن قرينـــه ... وذلك فى أمـر البـرية واضـــح

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله بقوله : ـ

اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير ســـوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه ٠

والثانى : ـ ان تسال اهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله فى كل ما حملك منها ، قال الله تعالى : ـ

« ومن لم يحكم بما انزل الله فألئك هم الكافرون » ، « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون » ثم قال تعالى « واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ٠

والذكر هو القرآن ، واهله من اجتمع فيه وصفان : العلم والتقوى ، لان بالعلم يعرف الرشد من الغى ، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغى ٠

فلا تقلد فى دينك الا من ثبت أنه عالم تقى ؛ لأن من لم يثبت أنه عالم يخاف أن يضل ويضل بعماه ، ومن لم يثبت أنه تقى يخاف عنه أن يضل بهواه ، ألم تر الى قول الله تعالى : ـ يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » ٠

وبنظرة نقدية نافذة يغربل المغيلى علماء وقته فيقول : ـ

ان كثيرا من علماء هذه الامة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد فى جميع البلاد ، فالجهاد فيهم وفى أنصارهم أفضل من كل جهاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ـ

« أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ، فقيل ممن يا رسول الله ؟ قال من علماء السوء » ٠

وعن أبى حذيفة اليمانى رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال : ان الدين قد استضاء استضاءة هذه الحصاة ، ثم أخذ كفا من تراب فجعل يدور على الحصاة حتى واراها ثم قال : ـ والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا (كما دفنت هذه الحصاة) . ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدة بالقدة والنعال بالنعال ٠

فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين بألا يتركوا احدا يتكلم فى دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى حتى يكون من اهل العلم والتقوى . ولذلك لما قدم على بن أبى طالب رضى الله عنه البصرة دخل جامعها فوجد القصاص يقصون ، فأقامهم حتى جاء الى الحسن البصرى رضى الله

عنه فقال : يا فتى · انى سائلك عن شىء فان انت اجبتنى عنه بقيتك ، والا اقمتك كما أقمت أصحابك ·

ــ وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ــ قال الحسن : سل عما شئت فقال . ــ ما ملاك الدين ؟ قال : الورع · فقال : وما فساد الدين ؟ قال :ــ الطمع ، قال اجلس مثلك يتكلم على الناس ·

اليس من اعظم الواجبات على كل امير أن يطرد عن طريق الدنيا جميع المفسدين ؟ فكيف لا يجب عليه أن يطردهم عن طرق الدين ؟!!

وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن كثيرا من قراء هذه الامة انما هم من علماء السوء ، وعلماء السوء انما هم لصــوص الدين ، وأضر على المسلمين من جميع المفسدين ، ولذلك قال ابن المبارك رضى الله عنه : ــ

وهــل أفســـد الدين الا الملـــوك وأحبـــار ســوء ورهبـــانهاـ

وقال بعض الادباء : ــ

قضــا· زمانا اضــحوا لصوصـا عمـــوما فى البرية لا خصوصـــا
فلو عند التحيـــة صـــافحونا لسلوا من خواتمنــا فصوصـــا

واستكمالا للاجابة ووصولا بها الى بؤرة الشعور من الملك السائل هذا الكلام الاستطرادى للمغيلى قال : ــ

فان قلت : قد بينت وأوضحت أن كثيرا من علماء هذه الأمة ليسوا من أهل الذكر ، انما هم من علماء السوء الضالين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ولكن كلا منهم يقرأ القرآن والحديث وكثيرا من نصوص الكتاب ويزعم أنه من أهل الذكر . وينكر أنه من علماء السوء، فبأى شىء نفرق بين أهل الذكر وعلماء السوء ؟ وكيف يفعل من ولى شيئا من هذا الامر ، ولم يجد فى بلده أحدا من أهل الذكر ؟

فالجواب والله الموفق للصواب أن الله يجعل لكل هاد من أهل الذكر أنوارا فى كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار.

وبيان ذلك أن حكمة الله ألا يعذب قوما حتى يبين لهم ما يتقون وتلك

سنة الله فى الأولين والآخرين . لئلايقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ٠

ومن حكمته كذلك أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الانبياء فى الأولين ومن أهل الذكر فى الآخرين ، لأن الله جعلهم للهداية واقامة الحجة فى هذه الأمة كالانبياء فى الامم الماضية ، ولذلك روى أن فى رأس كل قرن يرسل الله للناس عالما يجدد لهم دينهم ٠

ولهذا العالم علامات متى تبيناها فيه تعين أنه من الصالحين ، أما علماء السوء فمن أبين علاماتهم أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح . فمثلهم كمثل الصخرة فى باب النهر ، لا تشرب ولا تترك من يشرب ٠

وبعد كلام طويل من هذا القبيل يحس المغيلى ـ كما احسسنا ـ أنه غير واضح ، وبناء عليه غير مقنع ، وهو لهذا يعود فيبدأ من حيث انتهى ويقول على سبيل القطع : ـ

وان لم تفهم ما قررناه واشكل عليك شيء مما ذكرناه ، فاعلم أن القراء كلهم ثلاثة أنواع : ـ

الاول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقى ٠

الثانى من تبين لك بلا شك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقى ٠

الثالث من شككت فيه ٠

فمن تبين لك أنه عالم تقى فهو من أهل الذكر فاسأله عن دينك وقلده ٠ ومن تبين لك أنه ليس بعالم وأنه ليس بتقى ، فليس هو من أهل الذكر فلا تقلده فى شيء من دينك ولا تسأله عنه ٠

ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم : هل هو عالم تقى أو لا ، فقف عنه أيضا ، ولا تقلده فى شيء من دينك ولا تسأله ولو كان فصيحا عربيا يحفظ ما فى جميع الكتب حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقى ٠

اذا علمت ذلك لم يلتبس عليك أمر القراء فى هذا الزمان ووجب عليك أن تطلب عالما من أهل الذكر ٠

ثم اعلم أن تأخيرك النظر فى الامور حتى تستفتى من بعد عنك من أهل الذكر تضييع لكثير من الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، فبـــادر بالنظر فى جميع الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، واعلم أن الامور كلها ثلاثة انواع : -

فكل امر علمت أنه مما امر الله به فافعله،فانه خير ولا يأتى منه الاالخير وكل امر علمت ان الله نهى عنه فاتركه ، فانه شر ولا يأتى عنه الا الشر ٠

وهذان النوعان كثير ، فاذا شغلت باصلاحهما ونصحت فيهما كثر خيرك قولا وفعلا ، وملأت بلادك قسطا وعدلا ٠

وكل أمر شككت فى حكمه ، وخفت من اثمه فعليك فيه بالاحتيـــاط الصارف عن الشبهات ، فان الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، فاقطع الشك باليقين ؛ واحتط لدينك أكثر ما تحتاط لدنياك فى كل حين ،

والمغيلى هنا يضع الموازين للملك ، ليزن بها الرجال والاعمال ، ويزوده بما يلزمه فى مجابهة الامور التى تستجد حتى لا ينتظر الفتوى من أناس قد يبعدون عنه ، وهو ينطلق فى هذا من اعتبارين : -

الاول : ان على الانسان أن يجتهد ٠

الثانى : أن على الانسان ألا يتردد فى اختيار ما يراه مناسبا حرصا على البت السريع وبخاصة فى الاحوال التى يكون التأنى فيهـــا مضيعة للوقت ٠

وتمكينا لعوامل الفساد من الانتشار فى الارض ٠

ولم يتقو المغيلى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من اجتهـــد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله اجر»، لم يتقو المغيلى بهذا الحديث الشريف ، لأنه أراد لكلامه أن يكون عقليا أكثر منه نقليا ، ولعل هذا هو السر فى أنه ساق كثيرا من الأمثلة التى تثبت أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ٠

ولا بأس على الامام اذا تحرك من هذا المنطلق ، لأنه اذا كان جلب المصلحة واجبا ، فانه واجب على التراخى ٠ أما درء المضرة فهو - مع أنه واجب - واجب على الفور ٠

المسألة الثانية

تدور هذه المسألة حول أمور كثيرة منها معتقد سنى على وسلوكه ، فقد كانت أمه من أهل بلاد فار وهم قوم كفار يعبدون الاصنام من الاحجار والأشجار ، يتصدقون لها ويطلبون حوائجهم عندها ، فان أصابوا خيرا زعموا أن تلك الأصنام هى التى أعطتهم ، وان لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم .

وكان سنى على من صغره الى كبره كثير الاقامة عندهم فجرى على معتقدهم وتطبع بطباعهم ، أجل انه كان ينطق بالشهادتين ويتكلم بالفاظ المسلمين مع عدم معرفته بحقيقة ما ينطق به ، انما يقول ذلك بلسانه ، وربما سمع اسم النبى فقال : صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم .

ومن صفته أنه ماروئى فى جامع ولامسجد يوم جمعة ولاغيره ، وفى دائرته ودياره ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم ان يصلى صلاة ولا أن يصوم يوما من رمضان خوفا منه أن يعاقبه على ذلك ، وأما هو فى نفسه فلم يكن يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلى صلاة مكتوبة فى وقتها ولايقوم ويركع ويسجد فيها ، انما يترك الصلوات الخمس الى آخر الليل أو الى ضحى الغد ثم يجلس ويومىء الى السجود من جلوسه وهو صحيح قوى لاعلة به ، ولايقرأ فى صلاته تلك شيئا ، انما يذكر اسم صلاته فيقول بدلا من ركوع المغرب : المغرب ، وبدلا من سجودها : المغرب ، وكذلك فى سائر الصلوات . ومن صفته كذلك انه لا يتوقف فى النساء على نكاح ولاغيره من الشروط الاسلامية ، بل كلما أعجبته امرأة فى جميع مملكته أخذها وأدخلها فى بيته وفراشه ولا يبالى بزوجها ولا أحد ، ويجمعها مع أمها فيتلذذ بهما معا .

وأنه حلل دماء المسلمين وأموالهم فقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان والرضع وغيرهم ، وأفسد منهم مثل الذكر والأنثيين وقطف الأنف واليدين ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى ، وفساده فى الأرض بذلك ونحوه مشهور ولم يسمع قط بمثله فى الاسلام ، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات [ص ٣٤ ـ ٣٨]

هذا الواقع البشع لسنى على قد يكون أمرا مبالغا فيه من الأسقيا تبريرا لثورته عليه وخلعه له .

لكن يبقى أن لهذا الوضع السيىء أصلا يرجع اليـــه وتاريخا يثبت صدقه ، فقد كانت أمــور المسلمين فى الســـودان الغربى قريبة مما ذكر الأسقيافى سؤاله الموجه منه الى المغيلى :

دخل الناس فى الاســــلام واعتنقوه مع الاحتفاظ بعاداتهم الوثنية ، والابقاء على سلوكهم القديم ، أى أن اسلامهم كان سطحيا لاعمق فيه ولا لب له لأنه لم تنفر من كل طائفة منهم طائفة ليتفقهــوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ٠

وسنى على واحد من شعبه بل اكثر من ذلك كانت أمه وثنية وكذلك كان اخواله،وقد نشأ فيهم يتربى بين أحضانهم ، فلا عجب أن كان اسلامه مشوبا بهذه المظاهــر الوثنية التى كانت جذورهــا فيه أمكن من جــذور الشعائر الاسلامية ٠

وننتقل الى اجابة المغيلى لترى بماذا رد ؟

قال : ـ الجواب والله الموفق للصواب أن سنى على وجميــع أعوانه واتباعه وانصاره ، لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الارض . وجهاد الأمير فيهم وأخذه السلطنة منهم افضل الجهاد واهمه ٠

وأماقولك هل هم كفار أم لا ؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة ، انما يكون التكفير بأحد أمور ثلاثة ٠

الأول : أن يكون نفس اعتقاده كفرا كانكار الصانع أو صفة من صفاته التى لا يكون صانعا الا بها ، أو جحد النبوة ٠

الثانى : صدور مالايقع الا من كافر وان لم يكن فى نفسه مثل استحلال شرب الخمر ، وغصب الأموال وترك فرائض الدين والقتــل والزنى وعبادة الأوثان والاستخفاف بالرسل وجحد شىء من القرآن ٠

فهذان الأمران الاجماع على من ثبت عليه واحد منهما حكمنا بكفره

الثالث : أن يقول قولا يعلم انه لايصدق الاممن لا يعلم الله تعالى ، وان كان قائله يزعم أنه يعرف الله ٠

وهذا مختلف فيه بين العلماء ، هل يكفر به أو لا . وعليه اختلفوا فى تكفير المعتزلة ونحوهم من أهل البدع ٠

واذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذى ذكر تموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ،

فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر ، وكذلك كل من عمل بمثل عمله ، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك ·

وأما استرقاق أولادهم فلأراه وان ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لأن الكفار ثلاثة أصناف ·

الأول : من هو كافر صريح بالأصالة كالمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح عن آبائه ·

الثانى : من كان مسلمــا ثم ارتد ارتدادا ظاهرا فصرح أنه خرج عن دين الاسلام ودخل غيره من أديان الكفر ·

الثالث : من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره ، لأنه صدر منه مالايقع فى الظاهر الا من كافر كما ذكرتم فى سنى على ·

فالكفار بأصالة الكفر تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم لاخلاف فى ذلك بين العلماء ·

وفى الكفار بالارتداد خــلاف : قال ابن القاسم فى أهــل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الاسلام الى الكفر : لاتسبى ذراريهم ونساؤهم ، وأما أموالهم فهى فىء للمسلمين ·

قال ابن رشد : وهذا هو الصحيح من جهة النظر ، لأن المرتدين أحرار من أصلهم قال : والى مذهب ابن القاسم فى المرتدين ذهب عامة العلماء وأئمة السلف ·

واذا علمتم ذلك فكل من فعل شيئا من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب فان تاب ترك ، وان لم يتب قتل بالسيف كفرا ، ولا تسترق أولادهم انما يجبرون على الاسلام [ص ٣٩ ـ ٤٠]

والمغيلى فى افتائه وآرائه مرتبط بالدين ومعتصم بحبله المتين ، فهو قد أجاب اجابة موضوعيــة غير متأثرٍ بالحملة العدائية القوية من جانب

الأسقيا ضد سلفه سنى على ، لم يلف ولم ينافق بلم لم يتكلم كلاما موجها ·

العهدة على الراوى فيما أفتى به المغيلى ، والراوى هنا هو الأسقيا نفسه ، فان كان صادقا فله صدقه ، وان كان كاذبا فعليه كذبه ، أما المغيلى فهو على الحيـــاد تماما . لا انحياز منه الا الى الله ولا ولاء لراية سوى راية الاسلام ·

ولنقرأ معا قوله السليم الحكيم : « واذا علمتم ذلك تبين لكم ان الذى ذكر تموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ، فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله » ·

ونقف مما قرأناه عنـد قوله : « تبين لكم أن الذى ذكرتموه من حال سنى على علم مع الكفر » انه هنا قد ألصق الدعوى بمد عيها وقرنها به بل اكثر من ذلك ألبسها له ، أما هو فلا شأن له بصـــدق أو كذب ما قاله الأسقياعن خصمه ·

وما أعجب خبر [أن] فى العبارة السابقة وهو [علم على الكفر] أى علامة عليه ·

يريد أن يقول : ان الكفر هو ما ذكرتموه من أعمال وأقوال نسبتموها الى سنى على · لم يحكم صراحة بكفر سنى على ، كل ماهناك أن ماذكره الأسقيا سبب للكفر بل أكثر من ذلك هو اسم له وعلم عليه ·

وانظروا الى هذا التشكيك الصارخ فى كلام الأسقيا : [فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله] ·

ان الجواب هنا متوقف على الشرط ، والمحمول قائم على الموضوع، وليس هذا افتاء فى شأن سنى على وحده ، بل انه افتاء فى قضية عامة ، وهى تمس كل من مارس الأعمال السابقة ·

ولا يسعنا هنا الا أن ننوه بشجاعة المغيلى وجرأته ·

المسألة الثالثـــة

هذه المسألة تدور فى فلك المسألة السابقة وتجرى فى محيطها ، لأنها من قبيلها ، ولو أعمل الأسقيا ذكاءه لاستغنى فى موضوعاتها عن افتـاء المغيلى .

فهو يقول فى مسالته هذه : اننى ملكت البلاد بعد سنى على وكان قد جمع أموالا وخداما من وجوه شتى . وجئت فاستوليت على ذلك كله ، ثم تركت كل مال من ادعى أنه حر مسلم ، ولما تحريت علمت أنهم يشهـدون ويقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله ، لكنهم يعتقدون مع ذلك أن هناك ما ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا :

لهم أصنام يعظمونها ويذبحون لها ولا يقطعون أمرا صغيرا أو كبيرا الا بأمر سدنتها ، وقد زجرتهم عن ذلك كله فأبوا الا السيف .

فما الذى أفعل بهم ؟
هذا هو سؤال الأسقيا ملخصا .

وقد رد المغيلى عليه بقوله :

الجواب والله الموفق للصواب أن الملك كله لله والحكم لله من قبل ومن بعد . فاشكر نعمة الله عليك واتقه فيما ولاك وقلدك من أمور ، واعلم أن سنى على حمل حمله على عنقه واكتسب فى حمله حتى انقضى أجله فترك ذلك الحكم بينكـــم ، فحملته أنت ، فاكتسب لنفسك فى حمله ما ترجى لك بركته . وتحمد لك عاقبته فى الدنيا والآخرة ، ولا تقل فى باطل قدرت اليوم على ازالته : هذا لا يلزمنى ؛ لأنى ما فعلته ، انما فعله غيرى ، فكلمافعله غيرك ثم صار اليك ، ان كان خيرا فاثبته . وان كان شرا فأزله ولو طـال زمانه ؛ لأن الملك والحكم لله وأنت واجب عليك أن تصلح كل ما وصل اليك ، ولأجل هذا كان فعلك فى اطلاق من ادعى أنه حر مسلم صوابا ، وكذلك كل مال تعين لمسلم معين ، واجب عليك رده .

وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك لأن التكفير فى ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك كما بيناه فى السؤال الذى قبل هذا ، فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضـــل من الكفـــار الذين لا يقـولون : لا اله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هؤلاء الذين ذكرت لبسوا

الحق بالباطل بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يشعر وهو لا يشعر ص ٤٣ ـ ٤٦ .

انتهت اجابة المغيلى ، وهى اجابة صائبة من وجهة نظر الدين ومن وجهة نظر الدولة ، لان الحاكم المسلم فى دولة دينها الرسمى هو الاسلام يجب عليه أن يشذب هؤلاء الذين يعتنقون المظاهر الوثنية ويؤلهون غير الله سبحانه وتعالى . والسكوت على ذلك تقصير فى حق الدين وفى حق الدولة .

ومن هذا الموقع المزدوج أفتى المغيلى بجهادهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وذراريهم وضم أموالهم الى بيت المسلمين .

المسألة الرابعة

وهى مكونة من ستة أسئلة . والسؤال الرابع فيه نوع من استعراض العضلات من جانب الأسقيا ، وليس معنى هذا أن مضمونه كذب فهو معقول وامكان وقوعه قائم ، وما الظن بامام عادل يتسامع الناس به فى الشمال والجنوب ، وفى المشرق والمغرب ؟

انهم بلا شك سيتدافعون نحوه وسيهرولون اليه طالبين أن يكون لهم شرف الولاء له . والدخول فى طاعته ، ويتأكد ذلك اذا كان سلاطينهم ظلمة لا يرعون فى الله الا ولا ذمة .

وهذا هو السؤال الرابع عطف به على أسئلته السابقة فقال : ـ

وأيضا بعض المسلمين فى شرقنا وغربنا سمعوا بى وطلبوا أن يدخلوا تحت طاعتى ، فهل أجيبهم الى ذلك ؟ أو نقف على حكم بلادنا التى أورثنا الله عن سنى على ؟

ويظهر أن الناس فى السودان قد أنسوا خيرا فى الأسقيا محمد بعد أن أحاط نفسه بطبقة العلماء من قراء وفقهاء وبعد أن نهض بمملكته فخرج بها من طور القبيلة الى طور الدولة .

وهذا فضلا عما اشتهر به فى مملكته بل وفى خارج مملكته من تقى

وورع ومن التزام باقامة العدل ودفع الجور ، فلا عجب أن يتهافتوا عليه ، وأن تهفو نفوسهم الى الدخول فى حكمه ٠

***

لكن بماذا رد المغيلى على هذا التطلع الى المجد ؟ وعلى هذا الاحساس المسرف بالذات ؟

أنظر ها هو ذا يقلم أظفار الأسقيا ، وبعبـــارة أدق : ها هو ذا يقلم أظفار الكبر فيه ويرده الى جادة التواضع ، والى عدم الانسياق وراء وهم كاذب أو برق خادع ٠

فقد يكون وفد هذه الامة من الحاقدين على حاكمهم أو من الظلمـــة الذين لا يعجبهم أن يعاقبوا بظلمهم وأن يسرى بينهم وبين غيرهم ٠

ولهذا اجئوا سياسيا الى دولة الاسقيا وحرضوه على غزو بلادهم نكاية فى حكامهم ونسيانا أو تناسيا لوطنيتهم التى كانت كفيـلة بردعهـم وبضبط سلوكهم فلا يخرجون على قواعد اللجوء السياسى ٠

وأبسط هذه القواعد انما هو عدم اشـــتغال اللاجىء الســـياسى بالسياسة ٠

***

قال المغيلى : ـ

الجواب والله الموفق للصواب أن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والتقوى مخالفة الهوى ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ٠

ثم اعلم أن البلاد ثلاثة : ـ

الأول : بلاد سائبة ليس لهم أمير بل مهملون ٠

فهؤلاء أجبهم الى مبايعتك والدخول تحت طاعتك ؛ لأنه لا يحل لطائفة

من المسلمين ان يكونوا مثلا قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ـ « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » .

الثانى : ـ بلاد لهم امير يرعاهم فى مصالح دينهم ودنياهم بحسب الامكان فى هذا الزمان . وهؤلاء لا يحل لأحد منهم أن ينزع يدا من طاعته ، ولا يحل لأحد أن ينازعه فى رعيته « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا بويع الخليفتان فاقتلوا الاخير منهما ، لا خير فيه .

الثالث : بلاد لهم أمير من هؤلاء الأمراء الذين وصفت :
يأخذ المكس بالظلم وبالفساد وعدم الاصلاح ، فان استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم حتى تقيم أميرا عادلا فافعل ، وان أدى ذلك الى القتال وقتل كثير من أعوانك ؛ لأن من قتل منهم شر قتيل ، ومن قتل منكم خير شهيد ص ٤٧ ـ ٥١ .

***

والمغيلى بهذا الرد الجامع المانع قد كشف من غرب الاسقيا وحد من طموحه غير المشروع .

المسألة الخامسة

هذه المسألة تعالج شئون المال والاقتصاد أصلا ، وشئون السياسة والاجتماع تبعا ، فهى تدور حول ركن هام من أركان الاسلام هو الزكاة . وقد بدأها المغيلى هكذا : ـ

قولكم : وقد جعل الله هذه البلاد تحت يدى برها وبحرها ولم يعرفوا قبلى الا الظلم والاهمال ، ولم يسمعوا قط من يناديهم للهورسوله ، فأجاب من أجاب بخوف السيف والحمد لله ، وله مزارع كثيرة وبحر واسع كثير خيره فهل لى أن أعمل خراجا على أرضهم أم لا ؟

وأيضا : هل يجوز لى أن أنصب عالما أمينا يجمع زكاة النعم والحرث ويفرقها على مستحقيها من الاصناف الثمانية باجتهاده ام لا ؟

وان جاز لى نصبه ، فهل لى أن اعاقب من أبى أن يؤديها ؟
وان جازت لى عقوبته فما هى ؟
وهل تجوز شهادة السلطان الذى لا يمكس ، ولا حفظ عليه ظلم فى هذا الزمان أم لا تجوز شهادته ·

***

وواضح أن المراد بالسلطان فى كلام الاسقيا انما هو (المختــــار) بلغة الشام و (العمدة) بلغة مصر . فقد كان لكل منطقة أو لكل قبيـــلة بالسودان كبير أو شيخ فى هيئة سلطان ·

وتتردد مؤهلاته لذلك بين أن تكون كثرة المال أو كثرة الرجـــال أو شيئا من الفضائل الذاتية كسعة الصدر ورجاحة العقل وقوة الاحســاس بمتاعب الناس ، ومن هذا سعيه الدائب فى محوها أو على الاقل تخفيفها .

ونمضى الى جواب المغيلى فنجده يقرر أن للاسقيا بصفته اماما عادلا أن ينصب عاملا أو عمالا لجمع الزكاة وصرفها فى مصارفها التى ذكرها الله تعــالى ، لكن ليس له أن ينقل زكاة بلد الى غيره الا على وجــه النظر بالأصلح فيفرق فى أهل بلدها ما اضطروا اليه ، وينقل لغيرهم ما اضطروا اليه ·

وبعد أن ينصحه بالاستغناء بالحلال عن الحرام ، يمتدحه بأنه فارس ميدانه وأوحد زمانه . ها هو ذا يقول له : ـ

واذا كان أمرك الى الآن ما يستقر ، ولا ثبت على العدل ، فاصبر عن ذلك لأنك فى هذا الذى اســتقبلته وشرعت فيه غريب فى هذا الزمــــان ص ٥٤ ـ ٥٥ ·

***

والخلفية التى تقبع وراء هذا الثناء أن المغيلى كان قد نقم على الحكام فى تلمسان حكمهم الظالم لشعوبهم وتقاعسهم عن رعاية شـــئون رعيتهم واتخاذهم اليهود بطانة لهم يفضلونهم على بنى دينهم ·

وليس هذا فقط ، بل انه كان يرى فى كثير من حكام بلاد الاسلام بعدا عن العدل وقربا من الجور ، ولهذا اعتبر الاسقيا محمدا الأول غريبا فى زمانه بعدله فى حكمه ، وبمحاولته - قدر طاقته - تطبيق الشريعة الاسلامية فى سائر مملكته .

***

ويمضى المغيلى فى تجليه الدينى واصلاحه الدنيوى فيضع الحاكم وجها لوجه أمام مسئولياته الحضارية والعمرانية بقوله : -

« واذا كان الامام ينظر للمسلمين بالتقوى لا بالهوى ، واضطر لدرء مفسدة أو جلب مصلحة ، بأمر لا يخالف الشريعة فليفعله ، لأن المطلوب من الامام ونحوه درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الامكان فى كل زمان ومكان ، فلكل شيء وجه وليس الخبر كالعيان ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تحدث للناس أقضية بعدد ما أحدثوا من فجور .

واذا علمت ذلك ينبغى لك أن تجعل للخراج على تلك البلاد ما فيه مصلحة المسلمين وعمارة الارض من غير تضييق .

وينتقل الى مسألة حيوية وعلى درجة قصوى من الاهمية وهى مسألة المرافق العامة بقوله : -

« ولا يحل لك أن تجعل ذلك (الخراج) على المناضد العامة التى فيها الارتفاق العام كالمياه والمراعى والطرقات والمنازل المباحة فان الله لم يجعل ذلك لسلطان ولا غيره . وان كانت البلاد قد فتحت عنوة .

فاترك ذلك كله ، ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ، وما عند الله خير وأبقى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلمون شركاء فى ثلاثة : فى الماء والكلأ والنار » .

***

ولا أريد أن أعلق على هذا الكلام بما يثرثر به من يقيمون من أنفسهم سدنة فى معبد الاشتراكية وهم أبعد الناس عنها علما وعملا واللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

المسألة السادسة

وهى فى أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة ، وانما يأخذ مال الميت ابن أخته مثلا ٠

والاسقيا يسأل : هل تؤول هذه الاموال لبيت المـال ، أو تترك بأيدى من حازوها ، ويجبرون على التوارث فيهـا وفى غيرها على شريعـة الاسلام ؟

والباحثون يقررون أن البشرية فى فجر حياتها كانت تربط قضـايا الارث والاستخلاف بالأم ؛ فالأم هى ربة البيت ، وهى التى يعود اليها جميع أفراد الاسرة . وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بالاطوار التى لم ينتظم فيها الزواج ؛ فقد يكون للام عدد من الازواج فى وقت واحد، وفى أمثال هذه الاحوال فان الام وحدها هى التى تمثل الاصالة فى انحدار جميع أفراد العائلة من نسلها ٠

وقد مر المجتمع الافريقى قبل الاسلام بمرحلة ارتباط الارث بالام ، وبعد الاسلام ظلت بعض قبائله على عاداتها السابقة فى مسألة الميراث وهو ما أشار اليه الاسقيا محمد فى صدر هذه المسألة ، وقد تطور ذلك الى أن بعض الناس كانوا يقرون الميراث كما جاء به الاسلام ، ولكن اذا كان فى الورثة كبير استولى على جميع التركة وقال : هذا مال اخوانى وأنا اليوم بمنزلة أبيهم فيعطى الزوجة ونحوها نصيبها ويستولى على البـاقى حتى اذا مات استولى على تركته الاقوى أيضا ، ثم تطور ، الى أن صاروا لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء ٠

ولما كانت هذه الانظمة أنظمة جاهلية ، فان الاسقيا يسأل : هل هذه الاموال لبيت المال أم لا ؟

كما يسأل عن أناس مسلمين طردهم العدو من بلادهم فدخلوا بـلاد قوم آخرين وسكنوا عندهم ، وبعد ذلك جلا العدو الذى طردهم ، وبقيت بلادهم خالية خاوية ، لم يرجعوا لها ، فأخذ بعض الناس يزرعونها وأهلها يقولون : لا تزرعوا فى أرضنا الا بالكراء ٠

فقالوا لهم : الارض لله وقد خرجتم منها وتركتموها معطلة ، وكلهم الآن تحت سلطان واحد عادل ، فهل لهم أن يمنعوا أحدا أم لا ؟

هذه الاسئلة جزء من المسألة السادسة وليست كلها ٠

وجوابها : ان القوم الذين من شأنهم انهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة انما يرث منهم الخال وابن الأخت وابن الخال ، ان رأوا أن ذلك حلال وجحدوا شرائع ميراث الاسلام ، فهم كفار ، وان لم يجحدوا الميراث واقروا أنهم عصاة فليؤمروا بالتوبة والرجوع الى فرائض الله فيما يستقبل ، فان أبوا فللسلطان أن يأخذ أموالهم كلها . وان تابوا فأرى ان يترك لهم منها ما يثبت انهم اكتسبوه من الحلال ، وأن يقسم معهم ما سواه فيأخذ النصف ويترك النصف ٠

وأما الذين يستولى منهم الكبير على التركة ويقول : هذا مال اخوانى وأنا كأبيهم نحفظ لهم ونربيهم ، فليؤمروا بالتوبة ويأخذ السلطان حقوق ضعفائهم . فيقوم كل بحقه ، والسلطان ينصفه من غريمه ٠

وأما الذين لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء ، فهم كالفريق الاول على ذلك التفصيل ٠

وأما الذين طردهم العدو من أرضهم فتركوا سكناها ، فليس لهم أن يعطلوها ولا أن يأخذوا أجرة ممن يزرع فى مزارعها ويرعى فى مراعيها ، انما لهم ان ينتفعوا بها أو يتركوها لمن ينتفع بها حتى يرجعوا اليها ان شاء الله تعالى ص ٥٧ ـ ٦١ ٠

***

واذا بدا الاسفيا هنا حريصا على تطبيق قواعد الدين ، فان المغيلى قد حدد له هذه القواعد وجعلها كأنها محسوسة تتلقاها الحواس مثلما يتلقاها العقل بل قبل أن يتلقاها العقل ٠

وهو فيما يتعلق بالارض الخالية قد رجع بها الى أصل الخليقة ، فالأرض لمن يزرعها ، لا احتكار ولا اقطاع ٠

وهؤلاء الذين تركوا بلادهم ثم لم يرجعوا اليها بعد أن زالت أسباب تركهم لها لا يزرعون ولا يتركون غيرهم يزرع ، وهذا ـ عمليا ـ تعطيل للارض واضرار بالاقتصاد ٠

أما ـ نظريا ـ ففساد فى الجبلة وأنانية .

المسألة السابعة

وهى كالأولى فى طولها وتنوع موضوعاتها ، فمن سحر وتنجيم وشعوذة الى تطفيف للكيل وغش فى الميزان ، ومن اختلاط الرجال بالنساء الى عرى خالص للبنت حتى تتزوج ولو كانت بنت القاضى أو السلطان .

يقول المغيلى للاسقيا : -

ان كل ما ذكرتموه عن بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم ، فواجب على امير المسلمين وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلها .

وهو يشير على الامير باللجوء الى وظيفة المحتسب بقوله : -

واما التطفيف فهو حرام بالكتاب والسنة واجماع علماء الامة ، وواجب على أمير المؤمنين ان يجعل أميرا على الاسواق لحفظ الارزاق ، فيصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصنوج حتى لو فرنت مائة مثقال بالصنوج كلها لا ينقص . ولو جمعتها بتلك الصنوج لا تزيد الا مالا بال به من الزيادة والنقص .

وكذلك يجب اصلاح المكايل كلها كبارها وصغارها حتى تكون كلها على نسبة واحدة .

ولابد من عرض الموازين والمكاييل على التغيير فى كل حين ، فمن ظهرت عليه الخيانة فى شيء من الوزن أو الكيل فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين .

ثم يدخل فى كلام فنى لا يفهمه ولا يهضمه فضلا عن أن يقوله ويكتبه الا المتخصصون المتمرسون بالكيل والميزان فى الاسواق الجامعة .

***

وعن مسألة الاختلاط والعرى يقول : -

ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء ، وكشف العورات ، فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد فى منع ذلك كله بما استطاع .

ومن الصواب الواجب ان تنقل كل امرأة عن مواضع التهمـــة ، وان يجعل الامير امناء يطوفون بالليل والنهار والطرقات ، فكل من رأوه يتكلم مع أجنبية أو يدخل عندها أو ينظر اليها فليأخذوه وليأتوا به الى المتولى خطة الحسبة ليعنفه ويزجره بما يليق بمثله حسب سوء فعله .

وأما ما ذكرتم من عادة أهل جنى فى أن البكر لا تستر عورتها حتى تتزوج ، فذلك منكر من أكبر المناكر وأقبح القبائح لم يسمع قط بمثله فى شىء من بلاد المسلمين ، فكيف يزعمون انهم مسلمون ؟ !!!

انا لله وانا اليه راجعون .

***

بهذا تنتهى هذه المسألة وهى آخر مسألة فى الكتاب .

وقد ختمه المغيلى بما بدأه به من وعظ الامير وتذكيره ثم بالصـلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : -

فاتق الله تعالى وانظر لنفسك قبل الفوت . فانه لابد من المـوت قـال تعالى : - « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسـب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعـل الله لكل شىء قـدرا » .

وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيـــا الا متاع الغرور » .

صدق الله العظيم ونبيه الكريم ، ونحن على ذلك من الشاهدين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولاقـوة الا بالله العـلى العظيم ص ٧٠ .

***

أما بعد : -

فانى أدع المجال لكلام المغيلى كى يعمل عمله ويفرط حمله ، وينقل شحنته الثمينة من الفكر والحماس والاخلاص والابداع الفذى الى أذهان ومشاعر مستقبليه .

وكل ما أرجوه أن يقرأه بعض ذوى النفوذ فى بلاد العرب والاسـلام وأن يعوه ويطبقوه .

— ٥ —

كتاب آداب المعلمين

لمحمد بن سحنون

نحن هذه المرة مع التربية بمفهومها الحديث ٠

أقول : « بمفهومها الحديث » واعنيها ؛ فليست التربية الحديثة بضاعة أوربية فحسب ، أو أمريكية فقط ، وانما هى الى ذلك ، بل قبل ذلك وبالتأكيد تراث عربى اسلامى ، كان موجودا قبل الاسلام ، ثم نما وترعرع فى الاسلام ٠

واذا كان قد ازدهر فى عصرنا ؛ فلتضافر الجهود فى القديم والحديث عليه ، ولاهتمام الناس فى الشرق والغرب به ٠

ومن الطبيعى — ونحن فى عصر المد العلمى — أن تنشط التربية وتنهض، شأنها فى ذلك شأن سائر الفروع الاخرى من المعرفة ، كما أن من الطبيعى أن يكون لها رجالها المتخصصون هنا وهناك وهنالك ومعظم جامعات العالم الآن ، تضم بين كلياتها كلية خاصة بالتربية ٠

***

ونستطلع الجهود التربوية فى مغربنا العربى ، فنجد أنه زاخر بكتب التراث التى كتبت فى هذا الموضوع ٠

ونحن فى هذه الحلقة مع كتاب من أقدم كتب التربية التى ألفها المغاربة وهو كتاب آداب المعلمين ، كما سماه الذين طبعوه ، وآداب المعلمين والمتعلمين ، كما سماه الذين درسوه ، لمؤلفه محمد بن سحنون ٠ وسنعرف بالمؤلف أولا وبالكتاب ثانيا ٠

أما المؤلف فهو أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخى ٠

ولد بالقيروان سنة ٢٠٢ هـ ٠

واذا كانت الوسائط فى التربية هى البيت والمدرسة والمجتمع ، فان

الوسط الذى نشأ فيه محمد كان وسطا مرموقا ، فأبوه هو فقيه افريقيـــة بلا منازع ٠

ولما كان محمد وحيدا ، فقد استقطب اهتمام أبيه به وحل هو بؤرة الشعور منه ، وقد كان أبوه بالنسبة اليه أستاذا ومربيا ووالدا ، وليس معنى هذا أنه تولى بنفسه كل شئون تعليمه . فقد أحضر له المعلمين وزودهم بنصائحه التى فصلها على ابنه من وجهة نظره ها هو ذا يقول لواحـــد منهم : ــ

لا تؤدبه الا بالمدح ولطيف الكلام . فليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف . وانى أرجو أن يكون نسيج وحده وفريد زمانه ، وقد جاء محمد كما تمنى أبوه نسيج وحده وفريد زمانه ، ولا عجب ، فهو بعد أن أخـذ حظه من القرآن والعلوم الضرورية ، تحول الى مجالس الدروس العالية ، فاخذ عن والده . وكان يناظره قال القاضى عياض : ــ

كان محمد يناظر أباه وكان يشرح بعض كتبه فى حياته ، يفعل ذلك قبل مجىء أبيه الى مجلس العلم ، فاذا جاء أبوه قعد مع الناس يســـمع معهم ٠

وأيضا أخذ عن الاستاذ الراويه موسى بن معاوية الصمادحى ، وعن الشيخ عبد الله بن أبى حسان اليحصبى تلميذ مالك بن أنس وعن غيرهما من أعلام العقل والنقل فى أفريقية ٠

***

ولما بلغ سن الثالثة والثلاثين نصحه أبوه بالسفر الى المشرق أداء لفريضة الحج واستزادة من العلم

ووصل محمد فيمن معه الى مصر فأحتفل به فقهاؤها والتفوا حوله فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ٠

منهم أبو رجاء بن أشهب مضيفه ، والمزنى صاحب الامام الشافعى فلما انفض المجلس وكان كثير الازدحام سئل المزنى : كيف رأيت ؟!!

فأجاب : والله ما رأيت أعلم منه ولا أحد ذهنا على حداثة سنه ٠

وفى يثرب دخل المسجد النبوى الشريف ، فوجد أبا مصعب أحمد ابن أبى بكر الزهرى وهو متكىء لكبر سنه والطلبة يتنازعون لديه فى مسألة من مســـائل أمهات الاولاد ، فنبههـم محمد الى نكتة غريبـــة ، فاستوى أبو مصعب وقررها ؛ فزاد محمد أخرى ، فالتفت اليه أبو مصعب وسأله : من أى البلاد أنت ؟ قال : من القيروان ·

قال أبو مصعب : ينبغى أن تكون أحد الرجلين : اما محمد بن سحنون، واما محمد بن لبـدة بن أخى سحنون ؛ لأن هذا التنكيت لا يخرج الا من آل سحنون ، وعرفه محمـــد بنفسه ، فقام اليه الزهرى وصافحه وأضافه مدة اقامته بيثرب ·

وقد لقى بالمدينة من رواة الحديث وأصحاب مالك غير الزهــرى ، يعقوب بن حميد بن كاسب ، ومسلمة بن شبيب النيسابورى وغيرهما ·

رجع محمد من رحلته فعكف على التدوين والتأليف ، مما حدث به عن نفسه قوله : ــ دخل على أبى وأنا أؤلف كتاب « تحريم المسكر » فقال : يابنى · انك ترد على أهل العراق وهم قوم لطاف الأذهان سلاط الألسنة فاياك أن يسبقك قلمك الى ما تعتذر منه ·

[المدارك لعياض طبعة الرباط ج ٤ ص ٢٠٨]

***

ولم يشغله عكوفه على التأليف عن التدريس لطبقات من الطلاب فى جامع عقبة وفى منزله ، وزاد اقباله على التدريس بعد وفاة أبيه فى رجب سنة ٢٤٠ هـ ؛ فانه حل محله وجلس للتدريس مكانه ، فطبقت شهرته الآفاق وقصده الطلاب من كل مكان حتى صارت القيروان سحنونية . كما سماها المؤرخون فى ذلك الوقت ·

***

ولم يكن محمـــد عالما فحسب ، بل كان الى علمه صاحب مثل عليا ، وعلى جانب كبير من حسن الخلق ·

حكى أبو الحسن القابس أن رجلا كان يشتم محمدبن سحنون وينال

من عرضــه ، وربما جاءه فقال له : أجب أن أسارك ، ويشتمه فى أذنه فيقول له محمد ستراله : جزاك الله خيرا ٠

وحدث أن افتقر هذا الرجل ، ولم يجد أمامه أهلا للخير الا محمدا فقصده ، ولما ألقاه محمد عنده أقبل عليه وسأله عن حاجته ، فقال الرجل : أصلحك الله ، جئتك تائبا مماكنت أفعل ، فقال محمد :

دع هذا واذكر حاجتك ، فقال: والله [illegible] محمد واغنم ؛ ولم يلبث أن كتب له رقعة الى أحد الصيارفة وطلب منه المضى اليه ، فأعطاه عشرين دينارا اشترى منها ما يحتاج اليه ، ولما دلف بما معه الى داره ، سألته زوجتــه عن مصدر هذا الخير ، فقال : هذا مما أعطانيه الرجل الذى كنت أسبه ٠

***

وقد أثنى عليه معاصروه بما هو أهله :

قال القاضى الورع عيسى بن مسكين :«خير من رأيت محمد بن سحنون كان جامعا لخصال من الخير ، منهــا الورع ومعرفة الأثر وكثرة الايثار والتفقد للاخوان » ٠

وقال أيضا : مارأيت بعد سحنون مثل ابنه ٠

وقال المؤرخ القيروانى الكبير محمد بن حارث الخشنى :

كان محمد بن سحنون فى مذهب مالك من الحفاظ المتقدمين ، وفى غيره من المذاهب من المناظرين المتصرفين ، وكان كريما فى نفسه ، سمحا بما فى يده ، جواد بماله وجاهه ، وكان يصــــل من يقصده بالعشرات من الدنانير ، وكان يكتب لمن يعنى به الى الكور فيعطى الاموال الجسيمة وهذا عنه مستفيض عند أهل القيروان ، وكان وجيها فى العامة ، مقدما عند الملوك ، حسن العناية جيد النظر فى الحوادث والملمات

[طبقات علماء افريقية ص ١٢٩ طبعة الجزائر سنة ١٣٢٢ هـ]

ولما تصفح محمد بن عبد الحكم بعض كتبه قال : « هذا رجل سبح فى العلم سبحا » وقد توفى محمد بالساحل سنة ٢٥٦ هـ عن أربع وخمسين

سنة ، وأتى به الى القيروان فخرج معظم أهلها فى جنازته وصلى عليه أمير وقته محمد الثانى بن أحمد الاغلبى ، ودفن بباب نافع على خطوات من ضريح والده وقبراهما هناك من المزارات المشهورة المباركة ·

***

من آثار العلمية : ـ

١ ـ كتاب الجامع ، وهو أكبر تصانيفه ، جاء فى أكثر من مائة جزء منها عشرون فى السير ، وخمسة وعشرون فى الامثال ، وعشرة أجزاء فى آداب القضاء ، وخمسون فى الفرائض ، وثمانية فى التاريخ ، والباقى فنون أخرى · اى أنه موسوعة كبيرة ·

٢ ـ المسند فى الحديث وهو كبير جدا ·

٣ ـ تحريم المسكر

٤ ـ الامامة · قال عيس بن مسكين : لما وصل كتاب الامامة الذى ألفه محمد بن سحنون الى بغداد كتب بالذهب وأهدى الى الخليفة ·

٥ ـ مسائل الجهاد فى عشرين جزءا ·

٦ ـ تفسير الموطأ فى أربعة أجزاء ·

٧ ـ الرد على أهل البدع فى ثلاثة أجزاء

٨ ـ طبقات العلماء وقد جاء فى سبعة أجزاء

٩ ـ كتاب الاشربة وغريب الحديث فى ثلاثة أجزاء ·

١٠ ـ كتاب الايمان والرد على أهل الشرك ·

١١ ـ ما يجب على المتناظرين من حسن الادب ·

١٢ ـ الحجة على القدرية ·

١٣ ـ أحكام القرآن ·

***

وما ذكرناه الى الآن جزء من كتبه المفقودة ·

ومن كتبه الموجودة : ـ

١ ـ أجوبة محمد بن سحنون ، رواية محمد بن سالم القطان عنه ·

٢ ـ آداب المعلمين . وقيل المتعلمين ، وقيل آداب المعلمين والمتعلمين ، وهو الأصح ؛ لأنه العنوان المناسب لما جاء فى الكتاب ؛ فهو أجماله أما الكتاب فتفصيله

وهذا تحليله :

يقع الكتاب فى اثنتين وستين صفحة من القطع المتوسط ، وموضوعاته الرئيسية عشرة هى : ـ

١ ـ ما جاء فى تعليم القرآن العزيز ص ٧٥ ٠
٢ ـ ما جاء فى العدل بين الصبيان ص ٨٤ ٠
٣ ـ باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى ، وما ينبغى أن يفعل من ذلك ص ٨٦ ٠
٤ ـ ما جاء فى الأدب . وما يجوز من ذلك وما لا يجوز ص ٨٨ ٠
٥ ـ ما جاء فى الختم ، وما يجب فى ذلك للمعلم ص ٩٤ ٠
٦ ـ ما جاء فى القضاء فى عطية العيد ص ٩٦ ٠
٧ ـ ما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه ص ٩٧ ٠
٨ ـ ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان ص ٩٨ ٠
٩ ـ ما جاء فى اجارة المعلم ومتى تجب ؟ ص ١١٩ ٠
١٠ ـ ما جاء فى اجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها ص ١٢٦ ٠

***

وقبل أن نستعرض هذه الموضوعات نقول : ـ

ان الطابع السائد عليها هو النقل ، يعطى المؤلف الرأى مدعو ما بنقل من النقول : آية كريمة أو حديث شريف أو رأى لشيخ من شيوخه ، وعلى رأس هؤلاء الشيوخ أبوه ، وقد يناقش أصحاب الآراء فى آرائهم اذا لم تكن مقبولة منه ، بأن تكون مخالفة لرأيه كلية أو جزئية ٠

لكن لنت نظرى أنه كثيرا ما يقيس أمرا على أمر ويلحق شبيها بشبيه وربما وازنت هذه الخطة عنده نقوله فأحدثت تعادلية علمية بين النقل والعقل ، وهذه التعادلية ميزة حقيقية من ميزات المنهج الدقيق الذى ارتضاه ابن سحنون ٠

فاذا أضفنا اليها ميزة السبق الى موضوعه والريادة فيه ، اجتمعت له ميزتان عظيمتان ، وهاتان الميزتان لا تجتمعان الا للرواد فى العلوم والفنون ٠

ونرد هذا عنه الى تبحره الذى ساعدته عليه وراثته السحنونية وبيئته العلمية ومنزلته الفريدة عند أبيه ، ولم ننس بعد أنه صنعه على عينيه ، ومازال به حتى جاء نسيج وحده وفريد دهره وحتى قال فيه : ما أشبهه بأشهب ·

وقد جاء فى كتاب الاجوبة بسند محمد بن سالم القطان وهو من تلاميذ ابن سحنون قال: ـ

سألت محمدا عن مسائل شتى من العلم ، فأجابنى عن جميعها مع اختلاف الآراء فيها ، وقول كل واحد ومذهبه . فقلت له : ـ

ما أعلمك بآراء أهل العلم !!! وما أحفظك بالخلاف !!! فقال : ـ

تا لله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على أحد من أهل العلم ممن كان مضى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد الخلفاء بعده الى عصرنا هذا من لم أعرفه وأعرف قوله ومن خالفه ، وكأنى أسمع كل واحد منهم ، وكأنهم بازائى حضور ·

ولا نستغرب هذا من محمـــد برغم ما نحسه فى كلامه من احساس بالذات غير مستحب ، وأكاد أقول : من غرور ·

ومن يدرى ؟ فقد تكون هذه المبالغات من عمل ابن القطان وهو تلميذه؛ تكبيرا لشيخه بالاصالة ولنفسه بالتبعية ·

***

والآن الى آداب المعلمين ·

وهو بلا مقدمة وبلا تمهيد ، فقد بدأه مؤلفه هكذا : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ·

١ ـ ما جاء فى تعليم القرآن العزيز

قال أبو عبد الله محمد بن سحنون : حدثنى أبى سحنون عن عبد الله

ابن وهب عن سفيـــان الثورى عن علقمة بن مرثد عن أبى عبـــد الرحمن السلمى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه ٠

وفى رواية (خيركم) بدلا من [أفضلكم]

وعن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : يرفـــع الله بالقرآن أقواما ٠

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
عليكم بالقرآن ، فانه ينفى النفاق كما تنفى النار خبث الحديد

وعن أنس بن مالك : ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ـ
ان لله أهلين من الناس ٠ قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : هم حملة القرآن ٠ هم أهل الله وخاصته ٠

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : ـ

من تعلم القرآن فى شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه ، ومن تعلمه فى كبره وهو يتفلت عنه ويتركه فله أجره مرتين ٠

وعن ابن مسعود قال : ـ ثلاث لا بد للناس منهم :
لابد للناس من أمير يحكم بينهم ، ولولا ذلك لاكل بعضهم بعضـــا ، ولابد للناس من شراء المصاحف وبيعها ، ولولا ذلك لقل كتاب الله ، ولابد للناس من معلم يعلم أولادهم ، ويأخـــذ على ذلك أجرا ، ولولا ذلك لكان الناس أميين ٠

***

وقد وصلت بنا هذه النقول الى نقطة حاسمة ، وهى : هل يجـــوز تقاضى أجر على تعليم القرآن ؟ ٠

كلام ابن عباس واضح فى الجواز ٠
وعن ابن جريج قال : قلت لعطاء : آآخذ أجرا على تعليم الكتاب ؟
أعلمت أن أحدا كرهه ؟ قال ٠ لا ٠

وقال مالك : لا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن ، وان اشترط شيئا كان حلالا جائزا ، ولا بأس بالاشتراط فى ذلك ٠

ويستظهر مالك فى افتائه هذا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :-

خير ما اتخذتم عليه أجرا كتاب الله ، وما روى من أن سعد بن أبى وقاص كان يعطى الاجارة لمعلم بنيه ، وأيضا ما روى من أن صفوان ابن سليم وعطاء بن أبى رباح كانا يعلمان القرآن بالاجارة ، ومضى عليه عمل أهل المدينة ، ودل عليه أيضا حديث : أنكحناكها بما معك من القرآن ٠

***

وفى كتاب « جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان » لأحمد بن أبى جمعة المغراوى المتوفى سنة ٩٢٠ هـ تحقيق وتعليق أحمد جلولى البدوى ورابح بونار طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧٥ م تحت عنوان [باب حكم الاجارة على تعليم القرآن] نقرأ هذا الكلام : -

قال الجزولى : أما حكم الاجارة على التعليم والاثابة عليه فاختلف فيه على ثلاثة أقوال : -

أجازهما مالك ، ومنعهما أبو حنيفة ، وثالثها : تجوز الاثابة دون الاجارة ٠

والفرق بين الاجارة والاثابة : أن الاجارة فيها الاشتراط مع ضرب الأجل ، أما الاثابة فهى ايصال النفع من غير شرط ص ٢٧ - ٢٨ ٠

***

واذا كانت النقول السابقة تؤيد وجهة نظر مالك ٠

فان لأبى حنيفة ادلة تتناقض مع أدلة مالك ، وعليها عول فيما ذهب اليه :

من ذلك قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا » ، وما روى عن عبادة بن الصامت قال : كنت أعلم القرآن جماعة من أهل الصفة فأعطانى أحدهم قوسا أجاهد بها ، فسألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

لى : أتريد أن يطوقك الله تعالى بطوق من النار ؟!!

يقول ابن حبيب : انما كان ذلك أول الاسلام ، والقرآن قليل فى صدور الرجال ·

ويظهر أن وجه الحق فى هذه المسألة مع مالك وأصحابه ، لأنه اذا كان بيع المصحف ثمنا للرق والخط ، فان أجرة تعليم القرآن ثمن لشغل بدن متولى ذلك ·

وعلى رأى مالك أسست الكتب المؤلفة فى تعليم القرآن بل وغير القرآن من الفقه واللغة والنحو والادب والتاريخ وغير ذلك من العلوم والفنون ·

***

٢ - ما جاء فى العدل بين الصبيان

وهذا الموضوع تقدمى بمقدار ما هو منطقى ·

روى محمد بن سحنون بسنده عن أنس بن مالك قال : - أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الامة فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين ·

وعن الحسن قال : اذا قوطع المعلم على الاجرة فلم يعدل بينهم [الصبيان] كتب من الظلمة ·

وهذان النقلان نص على ما ينبغى أن يراعيه المعلم وهو يعلم من التزام بالعدل فى معاملة تلاميذه ، فلا يفتح عينيه على تلميذ ، ويغمضهما كلتيهما أو واحدة منهما عن آخر ·

وهذا الالتزام بالعدل تطبيق للحديث الشريف : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالمعلم راع فى تلاميذه ، واذا كان من حقه عليهم أن يطيعوه ويحترموه ، فان من حقهم عليه أن يسوى بينهم فى رعايتهم وتعليمهم ·

أجل ، فالمعلم - أى معلم - يتولى تعليم تلاميذه القرآن والعربية وأصول الدين ، كما يتولى تهذيب أخلاقهم بالفضائل والمكارم ، وهو لن يحقق ذلك كله أو بعضه ، ولن يصل فيه الى شىء ايجابى ، ما لم يكن أخلاقيا فى سلوكه ·

ولقـــد كان أسلافنا يتحرون جهدهم فى اختيار من يعلم أولادهم ، فلا يرتضون لهذه المهمة الخطيرة الا من عرف بحسن خلقـــه واشـــتهر بالاستقامة والعدالة مع الخبرة التامة بطرق التدريس والعلم الشامل الكامل بالقرآن وعلومه ٠

أوصى الصحابى الجليل عتبة بن أبى سفيان معلم أولاده حين سلمهم اليه فقال : يا عبد الصمد ٠ ليكن اصلاحك لبلدى اصلاحك لنفسك ؛ فان عيونهم معقودة بعينيك ٠ الحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت علمهم كتاب الله ، ورروهم حديث رسوله ، وحفظهم الشعر العف ، كن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، واياك أن تتكل على عذر منى ، فقد اتكلت على كفاية منك [العقد الفريد جـ ١ ص ١٩٦] ٠

***

٣ ـ باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى وما ينبغى أن يفعل من ذلك

وهذا البـــاب استقصاء من المؤلف لظاهرة كانت موجودة فى وقته ، وقد تخلخلت الآن الا من بعض الكتاتيب فى البوادى والقـــرى ؛ فقد كان الصغار يكتبون على الالواح الخشبية البيضاء بالحبر الاسود ، أو على الالواح الارتوازية السمراء بالطباشير صلدا أو هشا، ثميحفظون ما يكتبون، وبعـــد حفظه وتسميعه يمحونه ، ليكتبوا مكانه ، ويظهر أن بعض الصبيـــة كانوا يستعملون أقدامهم فى هذا المحو ، ولم يقـــرهم على ذلك محمد بن سحنون ، وانما أشار بوعاء مملوء بالماء يغمس فيه التلاميذ ألواحهم ، ثم يمحون المكتوب فيها باليد أو بالمنديل ٠

ولا بأس من لعق المكتوب باللسان ، وازالته بالثوب ٠
ولقد كان ابراهيم النخعى يقول : ـ
من المروءة أن يرى المداد فى شفة المرء وثوبه ٠
ص ٨٦ ـ ٨٨ ٠

***

٤ ـ ما جاء فى الادب وما يجوز من ذلك وما لا يجوز

يقصد بالادب هنا التأديب ، وهو التهذيب عن طريق الضرب ٠

روى المؤلف عن سيف بن محمد قال : ـ

كنت جالسا عند سعد الخفاف ، فجاءه ابنه يبكى ، فقال : ما يبكيك يا بنى ؟

قال : ضربنى المعلم . قال : أما والله لأحدثنكم اليوم .

حدثنى عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ـ

شرار أمتى معلمو صبيانهم ، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين .

قال محمد بن سحنون : ـ وانما ذلك لأنه يضربهم اذا غضب وليس على منافعهم ، ولا بأس أن يضربهم على منافعهم ، ولكن لا يجوز له أن يضرب رأس الصبى ولا وجهه ، كما لا يجوز له أن يمنعه من طعامه وشرابه اذا أرسل وراءه .

ولا يجاوز بالادب ثلاثا الا ان يأذن الاب فى أكثر من ذلك اذا آذى ابنه أحدا .

ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، وفى هذه الحالة لا يجاوز بالادب عشرة . وأما على القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا ، يتولى هو ذلك بنفسه ، ولا يتركه لغيره كعريف أو نحوه .

وانما وقف عند عشرة فى أكثر الادب ؛ لأن عشرة غاية الادب .

قال رسول الله صلى الله عليه سلم : « لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة الا فى حد » .

***

ويستطرد محمد من أدب المعلم للصبى الى أدب الرجل لزوجه ، والى أدب السيد لعبده ، ثم يختم بدرة من درر النبى صلى الله عليه وسلم ، وباية من آيات بلاغته وهدايته ، وذلك قوله عليه السلام : ـ

« يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق » .

ولعل الربط بين تأديب الرجل ابنه وتصدقه غير واضح .

لكن الحديث نوع من المعادل الموضوعى ، فالابن المؤدب صدقة كبيرة على المجتمع ، وربما أربت فى قيمتها وقدرتها على ملايين الملايين من العملة

٥ ـ ما جاء فى الختم وما يجب فى ذلك للمعلم

جرت العادة بأن الصبى اذا ختم سورة طويلة أو أكثر من القرآن يستحق المعلم قبل ولى الامر مبلغا يسمى ختمة ·

وقد كنا فى الكتاب ندفع ونحن مسرورون ختمة لجزء [عم] وختمة لجزء [تبارك] وختمة لجزء [قد سمع] وختمة لربع القرآن وللثلثيه وللنصفه وللثلثيه وللثلاثة ارباعه ، أما ختمه كله فكان يعتبر عيدا أو يوم تخرج ، وكان أولياء أمورنا يغدقون على سيدنا بهذه المناسبة العظيمة اغداقا كبيرا ·

كان ذلك عرفا ، والعرف قانون كما نعرف ·

***

لكن ماذا كان من شأن السلف فى ذلك ؟

روى أن سحنون قضى بسبعة دنانير فى ختمة البقرة ·

أما ابنه محمد فيقول : ـ تجب الختمة اذا قاربها الصبى وجاوز الثلثين . ولما سئل عن ختمة النصف قال : لا أرى ذلك يلزم ص ٩٤

ولم تكن قيمة الختمة محددة ، وانما ذلك على قدر يسر الرجل وعسره·

٦ ـ ما جاء فى عطية العيد

سئل محمد بن سحنون عن عطية العيد ، وهى ما يسمى الآن بالعيدية فقال : لا أعرف ما هى الا أن يتطوعوا بها ، ولا تجوز للمعلم اذا سألها ·

يقول المؤلف : الا أن تكون المسألة منه على وجه المعروف ، أى من قبيل الانسانية ، ومن باب التكافل الاجتماعى فى المناسبات الدينية ·

***

والربط بين اهداء الصبيان للمعلم ، وبين تخليتهم أى منحهم اجازة العيد ، هذا الربط مكروه شرعا ، لأن الهدية حينئذ تكون سبب التخلية ، وفى ذلك ما فيه من فساد التربية ومن شبهة الرشوة ص ٩٦ ·

٧ ـ ما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه

يستطرد المؤلف الى ذلك فيقول : انها فى عيد الفطر يوم واحد ، ولابأس أن يأذن لهم بثلاثة أيام ، وفى عيد الاضحى ثلاثة أيام ، ولا بأس أن يأذن لهم خمسة أيام ·

ولما سئل عن ارسال الصبيان بعضهم فى طلب بعض ، قال : لا ارى ذلك يجوز للمعلم الا أن يأذن له آباؤهم ، أو تكون المواضع قريبة لا يشتغل الصبى فى ذلك ٠

وعلى المعلم أن يتعاهد الغائبين بنفسه فى وقت انقلاب الصبيان ، ويخبر أولياءهم أنهم لم يجيئوا ص ٩٧ ـ ٩٨ ٠

وكما لا يجوز للمعلم ارسال الصبيان بعضهم فى طلب بعض ، لا يجوز له أن يرسلهم فى حوائجه الخاصة به ص ١٠٩ ٠

٨ ـ ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان

هنا نجد أن المؤلف يضع المعلم وجها لوجه أمام مسئولياته التربوية ، ويطلب تفرغه التام لها ، فهو لا يسمح له بأن يشتغل عن الصبيان ولو بالكلام ، الا أن يكون فى وقت لا يعرضهم فيه ، فلا بأس أن يتحدث وهو فى ذلك ينظر اليها ويتفقدهم ص ٩٨ ٠

وفى مكان آخر من نفس الموضوع يقول : ـ

وليلزم المعلم الاجتهاد ، وليتفرغ لهم ، فلا تجوز له الصلاة على الجنائز ولا عيادة المرضى الا فيما لا بد منه ممن يلزمه النظر فى أمره ، لأنه أجير لا يدع عمله ص ١٠٠ ٠

وقد سئل : هل ترى للمعلم ان يكتب لنفسه كتب الفقه ؟ فقال :

أما فى وقت فراغه من الصبيان فلا بأس أن يكتب لنفسه وللناس مثل ان يأذن لهم فى الانقلاب ، وأما ما داموا حوله فلا ، أى لا يجوز له ذلك ، وكيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النظر فيه الى ما لا يلزمه ؟!!! ألا ترى أنه لا يجوز له أن يوكل تعليم بعضهم الى بعض ، فكيف يشتغل بغيرهم؟!!

وابن سحنون يحبذ أن يكتب الصبى للناس الكتب والرسائل ، فهذا مما يخرجه أى مما يساعد على تخريجه ويكسبه مهارات مميزة ٠

واذا كان المطلوب من المعلم انما هو اقراء الصبيان القرآن واعرابه والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل . فان من المرغوب فيه منه أن يعلمهم الحساب والغريب والعربية ، ومن الشعر وكلام العرب ما لا يكون فيه لحن . ولا بأس من أن يعلمهم الخطب اذا أرادوا ، لكن لا يعلمهم ألحان القرآن ؛ لأن مالكا قال . ـ لايجوز أن يقرأ القرآن بالالحان ٠

وليجعل الكتب من الضحى الى وقت الانقلاب ، ولا بأس أن يملى بعض التلاميذ على بعض ، لأن ذلك منفعة لهم ، وليتفقد املاءهم ، ولا يجوز له أن ينقلهم من سورة الى سورة حتى يحفظوها باعرابها وكتابتها ٠

قال سحنون : ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة المفروضة والمسنونة كركعتى الفجر والوتر وصلاة العيدين والاستسقاء والخسوف وصلاة الجنائز والضحى والتهجد ٠

وقد سئل مالك عن تعليم الصبيان فى المسجد فقال : لا أرى ذلك يجوز ؛ لأنهم لا يتحفظون من النجاسة ٠

ويحبذ سحنون أن تعلم المرأة المرأة ، لأنه لا يرضى عن التعليم المختلط قال : ـ وأكره للمعلم أن يعلم الجوارى ، ولا يخلطهن مع الغلمان ، لأن ذلك فساد لهم ٠

لكن أيأخذ المعلم صبيانه بقول بعضهم على بعض فى الأذى ؟ يجيب سحنون بقوله : ـ لا أرى هذا الا أن يكونوا صبيانا قد عرفهم بالصدق فيقبل قولهم ويعاقب به ٠ ص ٩٨ ـ ١١٨ ٠

٩ ـ ما جاء فى اجارة المعلم

وقد سبق أن استطردنا الى أصل هذه القضية فى أول فقرة ، وما هنا ليس الا تفريعات عليها واستطرادات لها ٠

وسنجد أن ابن سحنون يكثر من القياس واعمال الرأى والفكر قال محمد : وكتب شجرة بن عيسى الى سحنون يسأله عن المعلم يستأجر على

صبيان يعلمهم فيمرض أحد الصبيان ، او يريد أبوه أن يخرج به الى سفر أو غيره فقال : -

اذا استؤجر ســـنة معلومة ، فقد لزمت آباءهم الإجارة خرجوا أو أقاموا ·

قال محمد . مثل الرضاع . اذا استأجر الرجل لولده من يرضعه ثم مات الأب او الصبى ، فان عبد الرحمن روى عن مالك ان الاجارة تنتقض ، ويكون ما بقى فى مال الصبى ان كان له مال ، ويكـــون ذلك موروثا عن الميت ، وان مات الصبى أخذ الاب باقى الاجارة ·

وروى أشهب عن مالك أن تلك العطية نفذت للصبى ، فان مات الأب كانت للصبى ، وان مات الصبى كان ما بقى موروثا عن الصبى كأنه مال له ، وكذلك أجرة المعلم مثل هذا والله أعلم ·

قال محمد :وهذا قولى . وهو القياس

ونلاحظ أن محمد بن سحنون يبرز رأيه ويبرره بقوله : (وهذا هو القياس) ·

***

وها هى ذى الدروس الخصوصية على طريقة المجموعات سبق بهـــا ماضينا التعليمى حاضرنا وان إختلفت الدوافع اليها فى القـديم عنها فى الحديث ، فهى فى القديم كانت بسبب قلة المعلمين ، أما فى وقتنـــا الحاضر فدوافعها اقتصادية بحتة ·

قال سحنون : وقد سئل بعض علماء الحجاز - منهم ابن دينــــار وغيره - أن يستأجر المعلم لجماعة ، وأن يفرض على كل واحد ما ينوبه ؟ فقال : يجوز اذا تراضى بذلك الآباء ، لأن هذا ضرورة ، ولابد للناس منه ، وهو أشبه ·

***

وانظر قارئى العزيز الى التسهيل فى تكميل المعلم الناشىء تعليمـــه مثلما نجده الآن من التحاق خريجى المعلمين بكليات التربية أو نظام الانتساب

بالنسبة لحملة الثانوية بشرط أن يعطى لوظيفته التى يأكل منها عيشه حقها ولا يقصر فى أدائها قال : -

ولا بأس أن ينظر فى العلم فى الاوقات التى يستغنى الصبيان عنه مثل أن يصيروا الى الكتب واملاء بعضهم على بعض ٠

***

واذا كان قد مر افتراض موت الصبى أو موت أبيه ، فاننا هنا أمام افتراض موت المعلم نفسه ، وبموته تنفسخ الاجارة طبعا . وكذلك اذا مات أحد من الصبيان ، لكن قيل ان الاجارة لا تنفسخ ، وان على المعلم فيما له مقاصة فى التعليم ، وعلى أبى الصبى أن يأتى بمن يعلمه المعلم تمام السنة، والا كانت له الاجارة كاملة ٠

***

يورد المؤلف ذلك ثم يقول فى غير قليل من تحقيق الذاتية : -

الأول كلام عبد الرحمن وعليه العمل ، وانما ذلك بمنزلة الراحلة بعينها ، اذا هلكت انفسخ الكراء ، ولا يجوز أن يأتى بمثلها ولا يشترط عليه ذلك والله أعلم ٠

***

ونجد نوعا من المتابعة أو التفتيش على المعلم ، كما نجد نظام الحوافز مطبقا فى قول محمد :

اذا استظهر الصبى القرآن كله ، اكثر فى العطية للمعلم مما اذا قرأه نظرا ، واذا لم يتهج الصبى ما يملى عليه ، ولم يفهم حروف القرآن لم يعط المعلم شيئا ، وأدب ومنع من التعليم اذا عرف بهذا وظهر تفريطه ٠

***

ولا يظن ظان ان ختم القرآن معناه حفظ الصبى له كما هو معروف فى عصرنا ، وانما معناه حسن قراءة الصبى له واقامة لسانه به ٠

يقول المؤلف : -

تنازع المغيرة وابن دينار ، وكلاهما من علماء الحجـاز عن الصبى يختم القرآن عند المعلم . فيقول الاب : انه لا يحفظ ، فقال المغـيرة : - اذا كان أخذ القرآن كله عنده يقرأه الصبى كله نظرا فى المصحف ، وأقام حروفه ، فان اخطأ منه اليسير الذى لا بد منه مثل الحروف ونحوها ، فقد وجبت للمعلم الختمة ، وهى على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره .

يقول محمد : وهو الذى أحفظ من قول مالك .

وقال ابن دينار : سمعت مالكا يقول : - تجب للمعلم الختمة على قدر يسر الرجل وعسره ، يجتهد فى ذلك ولى النظر للمسلمين .

وما ذكرناه معناه أن قراءة القرآن - لا استظهاره - كانت هى الشائعة فى زمن المؤلف .

يقول أبو بكر بن العربى : - ما رأيت بعينى اماما يحفـظ القرآن .

ولا رأيت فقيها يحفظه الا اثنين ، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه ، وعلقت القلوب اليوم بالحروف وضيعوا الحـدود خلافا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه انفاذ لقدر الله ، وتحقيق لتوعـد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيين لنبوته ، وعضد لمعجزته .

١٠ - اجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها

قال سحنون : قلت لابن القـاسم : - أرأيت المصحف ، يصح أن يستأجر ليقرأ فيه ، فقال : لا بأس به . لان مالكا قال : لا بأس ببيعه ، وانما يباع الحبر والورق والعمل قال : ولا أرى أن تجوز اجارة كتب الفقه ، لأن مالكا كره بيعها ، لأن فيه اختلاف العلماء : قوم يجيزون ما يبطل قوم .

قال محمد : لا أرى بأسا باجارتها وبيعها ، ولا أرى أن يجوز بيـع كتب الشعر ولا النحو ولا أشباه ذلك ، ولا أن تجوز اجارة من يعلم ذلك ، وقال مالك : لا أرى اجارة من يعلم الفقه والشعر .

وروى بعض أهل الاندلس : انه لا بأس بالاجارة على تعليم الفقه والفرائض والشعر والنحو . وهو مثل القرآن ، فقال :

كره ذلك مالك وأصحابنا ، وكيف يشبه القرآن ، والقرآن له غاية ينتهى اليها وما ذكرت ليس له غاية ينتهى اليها ؛ والفقه والعلم أمر قد اختلف فيه ، والقرآن هو الحق الذى لا شك فيه ، والفقه لا يستظهر مثل القرآن ، فهو لا يشبهه ، ولا غاية له ولا أمد ينتهى اليه ص ١٣٦ .

***

وهذه صورة محددة من صور القطاع الخاص أو المدارس الخاصة يقول : ـ واذا استأجر الرجل معلما على صبيان معلومين جاز للمعلم أن يعلم معهم غيرهم ، اذا كان ذلك لا يشغله عن تعليم هؤلاء الذين استؤجر لهم .

واذا استؤجر المعلم على صبيان معلومين سنة ، فعلى أولياء الصبيان كراء موضع المعلم .

قال : ـ ولا بأس بالرجل يستأجر الرجل أن يعلم ولده الخط والهجاء وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يفادى بالرجل يعلم الخط .

***

انتهى الكتاب .

وقد تخطيت مسألة [أبا جاد] التى هى [أبجد] لأنها مسألة خرافية غير معقولة .

حدث بعضهم عن سحنون قال : سمعته يقول : لا أرى للمعلم أن يعلم [أبا جاد] وقد سمعت حفص بن غياث يحدث أن [أبا جاد] أسماء أسماء الشياطين ألقوها على السنة العرب فى الجاهلية فكتبوها .

وينسبون الى ابن عباس قوله : قوم ينظرون فى النجوم يكتبون [ابا جاد] ، أولئك لاخلاق لهم .

وقد عقد السيد محمد المرتضى الزبيدى فى كتابه « تاج العروس من جواهر القاموس » فصلا طويلاً لكلمة (بجد) بين فيه أصل الكلمة وآراء

علماء اللغة فيها ، فمن كلامه فى ذلك قوله : ـ قيل انها أسماء شياطين ، وقيل هى أسماء أولاد سابور ، وقيل غير ذلك ٠

وقال قطرب : هو [أبو جاد] وانما حذفت واوه وألفه ؛ لأنه وضع لدلالة المتعلم ، فكره التطويل والتكرار ، واعادة المثل مرتين فكتبوا [أبجد] بغير واو ، ولا ألف [-تاج العروس مادة بجد حـ ٢ ص٢٩٤]

والقول ما قال قطرب ، فان [أبا جاد] هى أبجد ، وابجد هى ألف باء الإبجدية العربية . ولعلها اختصار لأبجد هوز حطى كلمن
الى آخر هذه الرموز التى لازلنا نستعملهـا فى مقـدمات الكتب بدلا من الارقام حتى لا تختلط أرقام المقدمة بأرقام صفحات الكتاب

***

أما بعد

فهذا الكتاب كان ـ فى حدود علمنا ـ أول كتاب يؤلف عن تعـليم الصبيان ، فلا عجب أن جاء بعده الطوفان ممثلا فى رسالة أبى الحسن على بن خلف القابسى المفصلة لاحكام المعلمين والمتعلمين ، والتى حققهـا الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى وطبعتها دار المعارف بمصر ٠

وفى القرن الخامس الهجرى نجد أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى المعافرى المتوفى سنة ٥٤٦ هـ ، وله آراء سديدة وطريفه فى التربية والتعليم ٠

ثم جاء الشوشاوى حوالى القرن السابع الهجرى ، وألف كتابا نفيسا كان مصدرا أساسيا فى التربية والتعليم لمن جاء بعده من المعلمين والمربين٠

كمـا جاء أحمد بن أبى جمعة المغراوى المتوفى سنة ٩٢٠ هـ١٥١٤ م وألف كتابه [جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان] وفى سنة ٩٥٧ هـ ألف ابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ ١٥٦٧ م أكمل وأشمل كتاب فى هذا الباب وهو [تحديد المقـال فى آداب وأحكام وفوائد يحتاج اليها مؤدبو الاطفال] ٠

وقد حققه أخيرا الدكتور سليمان اسحاق الاستاذ بكلية التربية جامعة المنيا وأثبت به سبق الهيثمى الى كثير من نظريات التربية الحديثة فى أمريكا وأوربا .

***

والخلاصة انه يمكن القول بان هذه الكتب قد تضافرت على اعطاء صورة حية لطرق ونظم التعليم وقت تأليفها ، ومن هنا كانت اهميتها مهما كانت بساطتها ودرجة بداهتها ، وليس حتما أن تكون مشابهة أو مطابقة لنظمنا العصرية ، فلكل عصر نظمه ، ولكل زمان ومكان تقاليده ، وما ثبتت جدارته من هذه النظم والتقاليد يمضى مع الزمن فى تفاعل وتطور وايجابية .

« اما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » صدق الله العظيم .

خاتمـــة

هذه الخاتمة وقفة وليست خاتمة ، وقفة لالتقاط الانفاس ثم استئناف دراسة ما يتهيأ لي من التراث المغربي وهو كثير كثير .

ولا يفوتني أن أنبه الى انني لم ألتزم فيما عرضته هنا المنهج التاريخي؛ فقد ختمت بابن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ ، وبدأت بابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ .

ولي الحق في ذلك مادمت لا أعرض كتبا تعالج موضوعا واحدا ، أو تدور حول محور واحد ، انما هي كتب في موضوعات متفرقة لا يجمع بينها الا أنها تراث مغربي .

ولهذا آثرت في ترتيبها مراعاة كتابتي لها ، فما كتبته أولا جاء أول ، وما كتبته ثانيا جاء ثانيا وهكذا .

ولقد كان هذا كافيا – من وجهة نظري – في ترتيبها ، فالصدق الفني يتحقق لها بذلك .

ولو أنني رحت أنسقها بعيدا عن تواريخ تأليفها لكذبت على نفسي وعليها ولأهدرت تطوري معها .

***

والى اللقاء مع مجموعة أخرى من التراث الادبي للمغرب العربي ، واذا كان هذا أملا ، فانني أدعو الله أن يأخذ بيدي فيه وأن يحققه لي آمين .

عبده قلقيله

١٠ من رمضان ١٣٩٨ هـ
١٤ من أغسطس ١٩٧٨ م

كتب صدرت للمؤلف

١ - النقد الأدبى فى العصر المملوكى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٢
٢ - القاضى الجرجانى والنقد الأدبى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ [نفد
٣ - النقد الأدبى فى المغرب العربى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٣
٤ - القاضى الجرجانى (على بن عبد العزيز)
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤
٥ - مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤
٦ - نقد النقد فى التراث العربى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥
٧ - النقد الأدبى عند القاضى الجرجانى
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٦
- خط سير الادب العربى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧
٩ - لغـــويات مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧
١٠- التراث الادبى للمغرب العربى مكتبة عالم الكتب سنة ١٩٧٩

شكر وتقـــدير

تفضل شيخنا الجليل النبيل الاستاذ أحمد الحمنـــاوى فراجع بروفات الطبع على أصل الكتاب ثم أذن بطبعه

فله الشكر منى والثواب من الله تعالى

❊ ❊ ❊

وأجزل الشكر وأعمق التقدير للفنيين فى مطبعة دار الهنا بالقاهرة وعلى رأسهم الاخ الفاضل الحاج كمال حامد المشرف الفنى بالمطبعة ، لاخراجهم هذا الكتاب اخراجا نموذجيا مثاليا .

عبـده قلقيله

دار الهنا للطباعة : ٩٧١٣٢٧